سارق الجماجم

الكتاب: **سارق الجماجم**

المؤلف: **إبراهيم شحبي**

التصنيف: **رواية**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: **أكتوبر** 2018

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 9 - 845 - 429 - 614 - 978

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

7917 شارع التخصصي، حي النخيل، الرياض، المملكة العربية السعودية
7917 Takhassusi St, Al-Nakheel District , Riyadh, Saudi Arabia
Zip Coed: 12383-4284, Riyadh, Saudi Arabia. Tel: +966 114541148

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من **مدارك**.

mdrek.com read@mdrek.com DarMadarek

إبراهيم شحبي

سارق الجماجم

الفهرس

الجريمة.....

شيء عن أسَرتي.....

طفولة.....

حي المدقوق.....

أُسَرة المقروش.....

صدمة ياسر.....

حليمة مجدلية.....

مقهى النجوم.....

رحلة صيد.....

اختطاف .....

باتجاه الأمل.....

محاولات صغيرة.....

هاجس الهجرة.....

ورشة العم حمزاوي.....

برهومي العاشق..
رحلة التجميع...
ليلة المداهمة ....
بعد الإفراج ....
بقايا حي المدقوق...
صندوق أمي...
سرقة الجماجم...
أسواط ضياع..
زواج مشّبوه...
أضغاث أحلام...
قصاص..
لوثة..
لعنة التردد...
أشباح النهاية...

إلى الصديقين المبدعين:

علي فائع وحسن عامر.

(لطالما بحثتُ عني فلم أجدني)

الفزعُ في جلدِك
الفزع في رئتيك
حملْته فيك
أنجبتَ الفزع وتربّيه في أحضانك
تمسح فروهُ، تصقل أظافره، وترّقب أنيابه
تغلق عليكما ويكبر أمامك
يمتصُّ الأصواتَ
ليعتريك الوجل من كل حركات الليل
فزعُك في الظلام
أن تدوس له ذيلاً
وتعويا معاً.

أحمد الملا

ديوان (أجمل أخطائي) ٢٠١٦م

الجريمة

توقفتْ أصوات الصافرات التي دوّت من سيارات الأمن بينما تعالت أصوات نساء الحي عويلاً والرجال حوقلة، لم أشأ الخروج من عزلتي التي ضربتها على نفسي بعيداً عن الناس فأنا منذ غادرت السجن لا أخرج من بيتي المتهالك إلا للضرورة القصوى كأن أذهب إلى المقبرة للبحث عن جمجمة، أو أختلس خطوات في هدأة الليل إلى بقالة الحي فأجمع ما يسد جوعي من الخبز الجاف الذي عادة ما يركنه صاحب البقالة اليمني العم «حجوري « في كيس من الخيش بجوار برادة الثلج خارج باب البقالة، حيث اتفقت معه أن يترك في تلك الخيشة بعض معلبات الفول والتونة والفاصوليا إلى جانب عدة أقراص من الخبز فآخذها لأعدّ لي منها وجبات لأيام تكثر وتقل بحسب حاجتي للأكل على أن أدفع له الثمن نهاية كل شهر.

لم يكن ما أسمع وأرى تخيلات كتلك التي تعاودني بين الحين والآخر بعد أن اختلط عليّ الليل والنهار بسبب تعاطي بعض المخدر، إلا أن ساعة الجدار تشير إلى الحادية عشرة ظهراً، وعندما نظرت من شق الباب رأيت سيارات الشرطة تجوس خلال الحي والشمس مشرقة فأدركت أن الوقت نهار، إنها المرة الثانية التي تأتي الشرطة إلى هنا بهذه الكثافة وهذا الصخب بعد أن جاءت قبل سنوات لتقبض

عليّ شخصياً بسبب صناعتي لسيارتي الخاصة التي جمعتها من بقايا سيارات الخردة أثناء عملي في ورشة العم «حمزاوي» وما زعموه من أن ذلك الفعل يشكل خطورة على الأمن الوطني.

لا بدّ أن الأمر جلل هذه المرة فقد خرج أهل الحي من بيوتهم وانتشروا في الشارع الرئيس القريب من الحي وأصوات النساء تتعالى ونداءات الرجال تتداخل مع ضجيج أبواق وصافرات سيارات الشرطة، وبين الحين والآخر يعلو صوت المكبّر الذي تستخدمه الشرطة لتنادي بصوت وصلني وأنا مضطجع في فراشي:- سلم نفسك.. المنطقة محاصرة

- إذا لم تسلم نفسك سيتم إطلاق الرصاص.

قررتُ أن أتسلل لأعرف الخبر، كان المنظر مرعباً زلزل ما بقي لدي من قدرتي على مقاومة صلف الحياة، حين رأيت صديق الطفولة «ياسر» مقيداً تحيطه الشرطة، فسألت صاحب صالون الحلاقة القريب من موقع تجمع الناس بعد أن انفض جمعهم: ما الأمر؟ فأجابني بصوت حزين: ياسر نحر ابنه عمر بسكين قبل ساعات.

- كيف ؟!.

- أخذه من المدرسة عند التاسعة صباحاً إلى الفِناء المهجور في طرف الحي وهناك حزّ رأسه بسكين وتركه يموت، ثم ذهب يبحث عن زوجته «ريم « وابنته «نور» لقتلهما، فلاحقته الشرطة لتقبض عليه بعد أن أبلغ عنه موظف مكتب عقاري يقع في نهاية الشارع من جهة الفناء المهجور عندما رأى السكين بيد ياسر تقطر دماً وقد مرّ من أمامه بابنه

قبل لحظات ولم يعد به، فشكّ في الأمر حيث أسرع باتجاه الفناء ليجد الطفل مضرجاً بدمه فبادر إلى الاتصال بالشرطة.

عدتُ أدراجي وأغلقت الباب، اختلطتْ في ذاكرتي الأوقات مثلما اختلط البشر، وراودني خوف أن يرِد اسمي في التحقيق على لسان ياسر فأعود إلى السجن، أو على أقل تقدير ستراقب الشرطة تحركاتي حتى أقع في الفخ وأنا أسلّم جمجمة مسروقة من المقبرة لأحد أفراد عصابة الزعيم (محسن) فتنتهي حياتي بالإعدام بعد أن تكتشف السلطات الأمنية أنني أبيع جماجم موتى المدينة لصناعة المخدرات، وكلما لاح في مخيلتي ذبح ياسر لابنه اختلط في رأسي الزمن، ولم يعد خروجي إلا نادراً كأن يأتيني تكليف من «محسن» لأجلب له جمجمة من المقبرة، أو يعضني الجوع فألتمس ما يسد حاجتي، ولم أعد أجد فرقاً بين الفرح والحزن، لكني شعرت هذه اللحظة بتحول عميق اجتاح أعماقي فأتحاشى أن ألمس الجدار، أو الباب، أو النافذة، وذهبت أتكور على حزن ثقيل وواسع ظننته سيشطرني نصفين، أو يوزع جسدي أشلاءً.

- لماذا قتل ياسر ابنه؟!

- ولماذا يريد قتل زوجته وابنته أيضاً؟!.

هل تبين له أمر جلل جعله يقدم على هذه الجريمة البشعة؟!، أم إن هلوسات المخدرات أوصلته إلى هذه الحالة ؟!، أم يأسه من الدنيا أوصله إلى مرحلة الجنون، وقاده إلى وضع حدٍّ لكل ما له علاقة به ؟!

استلقيتُ على ظهري فخفّت من النظر إلى السقف، فاستلقيت على بطني فلم أتقبل التمدد بتلك الطريقة، فعدتُ لأتكوّر واضعاً رأسي

بين رجلي كقنفذ خائف. خفّت من الأسئلة، من علاقة حبي القديمة لريم، تلك العلاقة التي أجهضها ياسر بعدوانية وجرأة نادرة في مهدها فلم يبق منها إلا بعض وميض في نفسي، شعوري بأن لي ذنباً في شيء ما جعل مخاوف استدعائي من الشرطة والعودة مرة أخرى إلى السجن تسيطر على تفكيري. ومجرد رؤية ياسر، أو ريم بالنسبة لي في هذه الظروف تمثل كابوساً لعيناً أتمنى أن تبتلعني الأرض قبل أن يحدث، بل لا بد أن تبتلعني الأرض قبل أن تأتي الشرطة لأخذي، فبمجرد ذكر اسمي من أحدهما، أو من أسرتيهما سيجعلني في مأزق نفسي يفوق طاقتي على التحمل، ولهذا لا بد من الشروع في الدخول إلى جوف الأرض فهي لن تنشق طوعاً لتخفيني، ولو حفرتُ قبري هنا فسيجدونني، لا بد أن أبتعد من هنا. ستكون المقبرة هي المكان المناسب الذي لن يبحث عني فيها أحد، سأدخل أحد القبور التي سبق أن حفرتها لنزع الجماجم، وسأنام فيه نومة أبدية. وبينما أنا أصارع تلك الأفكار تناولت سيجارة حشيش فأخذ العذاب يتلاشى رويداً رويداً، أتبعتها بأخرى حتى بدأت أبحث عني فلم أجدني، وأسلمني خدرٌ دبَّ في أوصالي إلى فقدان الشعور فغبت عن الوعي.

عندما استيقظت ليلاً كانت مخاوفي قد زالت بشكل جزئي، فلم تأت الشرطة لأخذي، وشعرت بجوع شديد فأعددت وجبة من الفاصوليا والتونة المعلبة، أضفت إليها بعض الطماطم والملح ، وسخّنت الخبز الجاف الذي بقي في الثلاجة ليلين قليلاً، وبعد الأكل أعددت كوباً من الشاي فمنذ زمن وأنا لا يمكنني أن آكل إلا بوجود الشاي وكأنه ينقصني إدمان آخر !.

كانت مخاوفي تتلاشى مع الأيام وإن لم يذهب القلق الذي كان يراودني بين حين وآخر حتى بعد أن تمّ تنفيذ الإعدام بياسر أمام الجامع الكبير بعد سنوات.

شيء عن أسْرتي

أنا وحيد أمي بعد أن ماتت أختي «هدى» التي سبقتني بثلاث سنوات بسبب الجدري الذي تفجر قيحاً في جسدها بعد أن شربتْ وصفة شعبية من المرّ واللّبان الذكر، وبعد أيام قالوا: انتكس المرض في داخلها حيث انتشرت الدمامل في رئتيها وأحشائها فماتت، لاقت أمي الكثير من المتاعب في تربيتي بداية بسعيها للحصول على لقمة العيش وانتهاء بمتابعتها الدائمة لي لكي أنجح وأتفوق في المدرسة، عملت أمي على طحن حبوب الذرة لجاراتها على مطحنتها الحجرية لتأخذ مقابل ذلك مبلغاً زهيداً كأجرة لعملها الذي يأخذ منها جلّ يومها لأن طحن مدّ على المطحنة اليدوية يستغرق ساعتين على الأقل، وما يصلها من جاراتها يزيد في اليوم على أربعة أمداد، وهذا يعني أنها تحتاج إلى ثمان ساعات متواصلة لإنجاز عملها اليومي الشاق»، وعندما أراها جالسة على ركبتيها ومادة يديها لتحريك ودي[1] المطحنة لتجرّ به الحبوب لساعات أحزن كثيراً فقد تصلبت كفاها، وتشنج ساعداها، وتقوس ظهرها.

كان أبي عالة عليها قبل أن يموت فليس له عمل سوى الجلوس

(١) الودي : قطعة من الحجر بطول ذراع، مدورة الشكل، تُجرّ على سطح المطحنة لطحن الحبوب .

في المقهى، أو في الجلسات المعدّة بجانب أبواب المنازل مع أصدقائه يتحدثون في كل شيء إلا عن عمل مفيد، وعندما يجوع يأتي للبيت ليطلب من أمي ما لديها فتجهّز له وجبة بيض تجمعه من دجاجاتها المنتشرة في فناء المنزل مع قرص أو قرصين من الذرة المحلية، وأحياناً تضع له قليلاً من السليط[1] الذي يأتيها من بعض جاراتها كأجرة للطحن، أو من بقايا ما تشتريه من السوق بين حين وآخر، وأحياناً يهدي أحد الصيادين أبي سمكات عطفاً على تاريخه في الصيد وما يسرد من نصائح للصيادين الجدد فيعود بها فرحاً لتضعها أمي في التنور مع قرص أو قرصين فيلتهمها أبي في لحظات.

لأبي نرجسية مزرية فهو يحلل كل شيء، يتحدث في السياسة والدين والاقتصاد والمباريات وشؤون الناس، يتحدث عن كل شيء في البلد كأنه خبير حاصل على أعلى الشهادات وليس مجرد رجل عاطل ترك قاربه الخشبي منذ سنوات على شاطئ البحر القريب لتحطمه الريح بعد أن كان صياد سمك غير محظوظ، وكان سيفقد نفسه في انقلاب قاربه الخشبي قبل سنوات بسبب الموج الشديد لولا أن الله لطف به حيث أسرع إليه أحد الصيادين بقاربه وأنقذه .

لا أعلمُ كيف رضيت أمي بالزواج به فأسرتها ميسورة الحال؟!، وهي تتمتع بقدر من الجمال يؤهلها للزواج من رجل ثري، أو صاحب جاه رغم ندرتهم في مدينتنا الساحلية الصغيرة. فلون بشرتها البيضاء، ووسامة وجهها بأنفها المحدودب وعيناها الواسعتان وطولها المعتدل

(١) السّليطُ : زيت السمسم.

يجعل أبي محظوظاً لكونه أسمر البشرة، قصير القامة وإن كانت له وسامة ولباقة في الحديث. وكلما سألتها عن سبب اختيارها لأبي كانت تجيبني ببعض الحسرة : (الحب غلاب) لا بدّ أن أبي ضحك عليها في مرحلة شبابه، سمعتها مرة تهدده بالطرد من المنزل فخفت من أن تكبر المشكلة ويفترقا، بدا لي أن لها سلطة عليه، أو أن لها جزءاً كبيراً في البيت الذي نسكنه، لكن الناس يسموننا بيت (السيد) ولو كان البيت لأمي لقالوا بيت (فتحية) مثل قولهم بيت (خديجة، وبيت الريشية، وبيت الجعفرية)، وهذه التسميات تعني أن ملكية البيوت تعود إلى النساء، ويبقى الأزواج فيها مجرد حضور ذكوري كما يقول الناس عنهم: (تيوس مستعارة)، لأن عليهم أن يؤدوا واجب فراش الزوجية دون حضور اجتماعي يذكر، ودون تدخل في شؤون البيت.

كانت أمي تحث أبي على العمل عامل حراسة في مدرسة، أو مؤسسة حكومية من تلك المؤسسات التي انتشرت في المدينة مع الأيام، لكنه كان يتحجج دائماً بكبر سنِّه، وعدم قدرته على تحمل الأوامر من موظفين في سن ولده، ولم يعد له طموحات في الحياة سوى أن يقضي بقية أيامه على دكة البيت التي تقع بجوار الباب الخارجي، أو مع رفاقه على سرر المقهى المكشوفة للشمس والرياح والغبار حتى يأتيه الموت، عاتبتْه أمي على ترك الصيد فقد أصبح سعر السمك مضاعفاً أضعافاً كثيرة، ولو أنه تجاوز الخوف من الموت بعد انقلاب القارب لكان أولى فلن يموت إلا في ساعته، ظلتْ أمي تلومه كلما عاد إليها وهي مجهدة من طحن الحبوب، وهو يلاطفها حتى تصمت، وتقدّم له الطعام .

ظل البيت مسؤولية أمي فهي إلى جانب أعمالها الكثيرة تخطف

رجلها إلى السوق يوم الاثنين من كل أسبوع تمر على « عميرة « البائعة التي تربطها بها علاقة صداقة ومنفعة، حيث تودع عندها أمي فائض بيض دجاجاتها وسمن شياهها لتبيعه لها فتأخذ ما كتب الله لها بعد أن تعطي عميرة نصيب جهدها والتي كثيراً ما كانت ترفض أخذ شيء إلا أنها ترضخ في النهاية أمام إصرار أمي، بعد ذلك تجوب السوق من أوله إلى آخره، بداية بسوق الخزفيات إلى أن تنتهي بسوق الماشية، ثم تعود إلى سوق الخضروات فتشتري بقلاً [1] وملوخية حين يحل موسمها، وربما عادت بقارورة سليط، وكنتُ أرافقها وأمسك بطرف ثوبها خوفاً من هيئة بعض الرجال الغرباء، بينما أنا أسمع الناس في السوق - رجالاً ونساء - يرحبون بها، ويتبادلون معها الحديث عن أسعار البضائع.

سمعت أبي في المقهى يشكو لصديقه حمزاوي جلافة أمي، وأقسم أنها لم تقبّله في أي جزء من جسده

منذ تزوجها، وشبهها بالبقرة لأنها قصَرتْ وظيفتها الجنسية في الانبطاح على ظهرها فقط ورفع رجليها عند اللزوم وتترك له الباقي.

نصحه صديقه حمزاوي بمصارحتها فرد أبي: أخاف أن تشك أنني أعاشر نساءً غيرها فتقيم الدنيا ولا تقعدها، ويستحيل أن تغيّر طبعها في هذا العمر لمجرد نصيحة، إنني أشعر بعد هذه السنوات الطويلة أنني لم أتزوج، فقط كان علي أن أؤدي وظيفة الجنس لأقضي

(١) البقل : يقصد به الفجل .

حاجتي، وأحياناً أكون مرغماً خوفاً من أن أهجرها فتتركني وليس لي قدرة مالية على الزواج بغيرها وإن كنت أرغب في ذلك.

في طريق عودتنا إلى البيت انتبه أبي إلى أنني سمعت الحديث فحذرني من قول شيء لأمي مما دار في المقهى من أحاديث الرجال، وأكد على ما ذكره لحمزاوي من حالة أمي وأنني لو أعلمتها بشيء فستترك البيت إلى أهلها، بدا لي أن أبي يشعر بالحرمان، وإن كنت ما زلت في التاسعة من عمري، وربما كان شعوره ذاك سبباً في بقائه عاطلاً، وعندما مات بعد عام تقريباً ظل قضيبه واقفاً فطلب الرجال من أمي أن تختلي به وتطفئ حاجته فرفضت مما اضطرهم إلى ربط قضيبه بلاصق جهة سرته قبل أن يخمد ويشرعوا في غسله .

طفولة

عشت طفولتي مع ياسر الفرحي وريم المقروش كونهما جيراننا، ولم يكن يفرّق بيننا إلا ساعات النوم نطوف أغلب الأوقات بين البيوت نلعب على مرجيحة من الخشب صنعها أبي حيث ثقب طرفي الخشبة وربط فيهما حبلاً، ثم ربط طرفي الحبل الآخرين بفرعين متوازيين من فروع شجرة السدر الوارفة التي تظل فِناء الدار، كنا نختلف ونتنازع على المرجيحة لكن سرعان ما نتنازل لبعضنا، وإذا دهمنا البول تبولنا أمام بعضنا واقفين، ولفت انتباهنا بعد حين أن ريم لا تملك نتوءاً لمخرج البول كالذي معي أنا وياسر فأخذنا نتأمل مخرجها بشيء من الغرابة وهي تضحك وتنظر لنتوئي، وعندما أرادت أن تلمسه رفضتُ فغضبت مني، لكن ياسر أغاظني حين تركها تحرك نتوءه وتتلمسه فذهبتُ مسرعاً إلى أمي كي أسألها عن السر الذي جعل ريم بلا نتوء .

-كيف عرفت؟

- رأيتها وهي تبول من أسفل بطنها.

غضبت أمي وهددتني بالضرب إن عدتُ للنظر مرة أخرى إلى ريم وهي تتبول.

بدأت أشعر بشيء من الميول لريم، أحبها، أريد أن تنام معي في

البيت فترفض أمها، أتوسل أمي أن تلح في إقناع أمها بالموافقة لكنها تتجاهل إلحاحي وتصرفني بكلمات لم أتبين قصدها :

- عندما تكبر تنام معك دائماً.

كنت ألتصق بريم وأقبلها، أحملها على ظهري حين تبكي من ألم أشواك الخبت التي تطأها ونحن نطارد صغار الغنم، أحياناً تبكي لأن قدميها غاصت في الرمل فتسرع أمها لإنقاذها بعد أن نسقط أنا وياسر في الفخ نفسه بعد مطاردة لشاة صغيرة فنتلقى لوماً وتوبيخاً، ومرات تجذبنا أم ريم لتخرجنا من مأزق الرمل وقد ملأ الشوك أرجلنا فنبكي، وعندما نجلس تحت ظل السدرة في الفناء نشتاك بمساعدة أمهاتنا فنبكي تارة ونضحك أخرى، أما ريم فلا تتوقف عن البكاء لأن أمها تمضي وقتاً في نزع الشوك واحدة تلو الأخرى بسبب عدم قدرتها على تجنب مواقع نبتة السحاء الشوكية، وكثيراً ما كنت أنبهها، مع الأيام شعرتُ أن ريم بدأتْ تبتعد عني وتلجأ إلى ياسر الذي يكبر بسرعة، تلتصق به فأحزن وسرعان ما أغفر لها فرارها مني، بدأت ألاحقها في بيتها حيث لا يستطيع ياسر الذهاب فأمه لا تسمح له، أذهب معها إلى فراشها على أمل أن تسمح لي أمها بالنوم معها، لكن أمي تفسد كل خططي وتأخذني دائماً إلى البيت قبل موعد النوم.

بعد سنوات توقفت ريم عن الذهاب معنا إلى الخبت بعد أن منعتها أمها، وبقيتْ في الفِناء تلعب لعبة القفز على رجل واحدة في المربعات التي تخطها على الأرض، أو تجمع قطعاً قديمة من القماش، ثم تقطعها أوصالاً وتشبكها بالشوك فتبدو على شكل فساتين عرائس.

عندما بلغتُ السادسة وبضعة أشهر ذهب بي أبي إلى المدرسة في الحي البحري واصطحب معي ياسر بناءً على طلب أمه، وفي أول أيام المدرسة أجلسني المعلم على كرسي خشبي كما أجلس كل الطلاب، ابتعد ياسر عني حيث جلس في آخر الصف، سئمت الجلسة بعد وقت قصير فطلبت من المعلم أن أعود إلى البيت مبرراً ذلك بحاجتي للطعام والماء، ضحك المعلم وضحك معه الطلاب، أخبرني أنه بإمكاني أن آكل بعد وقت من عند بائع الخبز، وأن أشرب الماء من الزير الموجود في زاوية فِناء المدرسة، في منتصف النهار افتعلت البكاء فسمح لي المعلم بالذهاب، لكن أبي لم يرحب بعودتي المبكرة فحذرني من تكرارها، أما أمي فقد طبعت قبلة حانية على خدي ونزعت ثوبي الجديد وألبستني القديم فخرجت مسرعاً لأبحث عن ريم التي لم تعد تخرج للعب.

طرقت الباب فردت أمها: منْ عند الباب؟

جاء ردي مرتبكاً : وحيد، فتحت الباب وقبلتْ رأسي، سألتها أين ريم ؟

- ريم في المدرسة.

- أريد أن ألعب معها عندما تعود.

- لن تلعب معكم بعد اليوم.. لقد أصبحت كبيرة.

أصابني حزن شديد، ولم أجد مبرراً لكلامها فعدتُ إلى أمي لأخبرها بالأمر كي أجد عندها حلاً فلم تعلق، اختفت ريم بمجرد دخولها المدرسة بعد السابعة في عباءة سوداء، ولم أعد أتمكن من رؤية

وجهها حتى وهي في بيتنا زائرة إلا ما ندر، وإذا تكرمتْ علي فبتحية خاطفة من وراء البرقع الذي يجعل عينيها واسعتين جداً ما حدا بي إلى اختلاس نظرات إلى وجهها عبر الأيام عندما تكون وسط النساء دون غطاء، وبعد بضع سنوات طلبتُ من أمي أن تخطب لي ريم لأتزوجها عندما أكبر فضحكت، ثم ردتْ بحنان :

- عندما تتعلم وتصبح رجّال، وعندك فلوس تقدر تصرف على بيتك.

- فقط أخطبها لكي لا تتزوج غيري.

- عليك بدراستك الآن حتى تنجح.

كنت كغيري من الطلاب نحلم بالغياب عن المدرسة لكن ذلك لا يتأتى لنا بسبب حرص أهلنا على الذهاب إليها، ثلاث مرات فقط غبناها خلال دراسة المرحلة الابتدائية، المرة الأولى وأنا في الصف الثاني: بسبب الحريق الذي نشب في بيت جعفر الرقاص في الحي الشرقي فاحترق البيت بمن فيه قبل أن يتمكن الناس من إخماده، تفحمت جثث جعفر وولديه وبناته الثلاث وأمهم، وكان يوماً عبوساً على المدينة أصاب الناس بالهلع والحزن، وعصفت بهم موجة واسعة من البكاء، وبقينا ثلاثة أيام في العزاء بلا مدرسة نراقب الوفود التي تأتي من كل مكان للتعزية، ونشارك في الأكل من تلك الولائم التي مدها أهل الحي على بسط الحصير في الشارع المقابل للحي لكي يستوعب الأعداد الكبيرة من البشر المجتمعين، ونختلس وقتاً للعب الكرة بعيداً عن أعين الكبار في آخر النهار.

أما اليوم الثاني: فكان بسبب الأمطار الغزيرة التي أغرقت المدينة حين اتصل البر بالبحر، وأصبحت قوارب الصيد هي الوسيلة للتنقل من حي إلى آخر، ودخلت المياه بعض البيوت خاصة في الحي البحري، وبقينا أربعة أيام في منازلنا لا نذهب إلى المدرسة حيث اشتغل الناس بترميم ما سقط من سقوف بيوتهم، أو جدرانها، وتجفيف ما غرق من أثاثهم وأرزاقهم، وتعاونوا على نقل ما نفق من أغنام ودجاج وحمير إلى الخبت، وتركوها هناك للسباع والثعالب تنهش منها ما شاءت، وما بقي من أجسادها تحرقه الشمس حتى تحُرك الرياح الرمل وتردم ما تبقى، إلا أن الرياح أعادت رائحة الجيف للمدينة بين حين وآخر فسببت الغثيان لبعض من شمها.

أما المرة الثالثة: فعندما كنتُ في الصف الرابع أبلغونا بوصول مسؤول من العاصمة ليفتتح المستشفى ومبنى البلدية فجمعنا المعلمون في طابور طويل على امتداد البرَحة التي أقاموا فيها مخيماً للاستقبال، بقينا لساعات في حرارة الشمس مما تسبب لي بدوار وغثيان سقطتُ بعده، ودخلت في غيبوبة بسبب ضربة الشمس التي تعرضت لها، وبقيت بعدها أسبوعاً في المنزل.

كنت أكره حصص الرسم لأن المعلم يطلب منا رسم غابة فيها أشجار وطيور وغزلان ويتوسطها جدول ماء يجري متعرجاً، لم أكن أجيد الرسم مثلما كان ياسر يجيده ويحصد أعلى الدرجات.

بعد وفاة أبي وأنا في العاشرة من العمر بكيت وشاركني ياسر ببعض الدموع فقد مات أبي فجأة بعد حمى لم تمهله أكثر من أسبوع،

ومع الوقت شعرتُ بفقده حيث كان ودوداً معي يصطحبني لصلاة الجمعة منذ السادسة من عمري لنصلي في المسجد الكبير في المدينة والذي يقع في مساحة واسعة بين أحيائها الثلاثة (المدقوق، والشرقي، والبحري)، وعندما يذهب أبي للمقهى يصطحبني في نهاية الأسبوع وأيام إجازة الأعياد والصيفية، هو يتسلى مع أقرانه وأنا أشاهد التلفزيون، أو أراقب لعيبة الكيرم أو البلوت.

لم تبك أمي كثيراً عند وفاته لكنها كانت تدعو له في صلواتها، وعندما يحل رمضان تبعثني كل مغرب بأقراص الخبز إلى المسجد قائلة: اذهبْ بصدقة أبيك للصائمين، عندما كبرت عرفت أن أمي نبيلة جداً مع أبي تدعو له وتتصدق مع أنه لم يكن زوجاً مثالياً في نظرها، ولم يكن يراها زوجة مثالية، وربما كانت بعملها ذاك تعوض تقصيرها معه في المعاشرة.

بعد موت أبي بأشهر اشترت أمي سبع شياه وخروف فحل يقوم بالتلقيح لتنجب الشياه حملاناً وتدر حليباً يسد حاجتنا إضافة إلى شياهها الثلاث التي بقيت معها، وأسندت إليّ رعايتها بعد العودة من المدرسة حول المزارع على أطراف المدينة، وحذرتني من تركها تأكل من مزارع الناس، ومع أنني لم أكن سعيداً بتلك المهمة إلا أن خياراتي كانت معدومة في ظل إصرار أمي، أصبحت أنا رجل البيت شكلياً أما العمل وتدبير الأمور فعلى أمي التي ظلت تحثني على النجاح في الدراسة مؤكدة أن العلم وحده ما سيجعلني موظفاً مرموقاً وزوجاً لريم، وعندما تتحدث عن ريم أجدني مندفعاً للتعلم، بعد أشهر أنجبت الشياه حملاناً، وأخذت أمي تشرف على إرضاعها لتحلب الفائض،

وبعد ترويبه تخضه في مخضة حتى يتحول إلى لبن تطفو فوقه قطع الزبدة فتجمعها، ومن ثم تسوق ما زاد عن حاجتنا إضافة إلى ما تجمعه من بيض دجاجاتها.

لم يكن التعليم سهلاً - خاصة في وجود ياسر الذي أخذني إلى مسالك السرقة والمضاربات -، ورغم ذلك كنت مصمماً على أن أنجح وأعمل حتى أريح أمي من العمل الشاق الذي تمارسه طلباً للقمة شريفة، كنت أقول لها دائماً أنه لا بد أن تعيش كأحسن نساء المدينة، وسأحضر لها خادمة من اليمنيات أو الحبشيات اللاتي يتسولن في الشوارع لكي تقوم على شؤونها.

سنوات من الملل المدرسي لم يقطعها إلا التسلية بلعب الكرة مع الطلاب في حصص الرياضة وأوقات الفراغ التي يغيب فيها معلم عن المدرسة حيث نلعب في قطعة أرض ترابية على مقربة من المدرسة، وظل الأمل هو الشيء الوحيد الذي أملكه من خلال الأحلام، فأحلم وأنا في المدرسة، أو عندما أذرع الخبت على أطراف المدينة مع الشياه بأن أكون وزيراً دون أن أعلم ما تعني بالضبط كلمة وزير، لكنني كنت أستمع إلى راديو «عيدروس « ذلك الرجل العجوز الذي يتمدد على سريره على مقربة من باب بيته كل صباح ليستقبل شروق الشمس في حي البحري ونحن في طريقنا إلى المدرسة، وكان صوت المذيع يردد قال الوزير، وعبّر الوزير، وبعث الوزير، وهنأ الوزير، فشعرت بأهمية دوره فتمنيت أن أكونه، وبعد أن كبرت أدركت أن هذا الحلم لن يتحقق لأن نظام البلد لا يعطي الفرصة لمواطن ريفي أن يكون وزيراً مهما بلغت شهادته العلمية وقدرته العقلية.

أما الأحلام الصغيرة فتحقق منها الكثير كالقبض على طائر ملون وتربيته، وتربية العديد من الشياه الصغيرة التي ولدتها أمهاتها في الحظيرة فأسميتها بأسماء نساء الحي إلا أن أمي لا تلبث أن تبيع الحملان بعد أشهر لتشتري بثمنها لوازم البيت، وبعض حاجاتنا من ملابس وأحذية.

في المدرسة نما طموحي في الابتكار فكنت أجمع الآلات المحدودة التي أجدها ملقاة في جوانب الحي، أو في الخبت (راديوهات منتهية الصلاحية، ودراجات نارية محطمة، وموتورات إضاءة صغيرة خرجت عن الخدمة) من تلك التي انتشرت في أحياء المدينة الثلاثة قبل سنوات لتضيء أول الليل ثم تنطفئ عند نهاية الثلث الأول لتحل أضواء النجوم والقمر محل ضوء النيون، وعندها تملأ أصوات الضفادع والصراصير ليل المدينة بديلاً لصوت تلك المولدات المنهكة، كنت أجمع قطع الخردوات التي أجدها في جنبات الحارة وأحاول تركيبها دون أن أستطيع تحقيق نجاح ملموس.

بعد سبع سنوات من استتار ريم خلف العباءة السوداء شاع في البيوت أنها أصبحت امرأة حيث جاءتها الدورة الشهرية، وعندما سمعتُ الخبر شعرت أن ريم تبتعد عني أكثر من ذي قبل، أحسست بحزن ما لم أستطع تفسيره، حدّثت ياسر فصدني بحديث عن مغامرة ليلية نسرق فيها دجاجة ونطبخها في الخبت أو في بيت خرب في إحدى المزارع تعودنا الذهاب إليه عندما نريد طبخ مسروقاتنا من اللحم والدجاج بعيداً عن الأعين وكأن ياسر بمحاولته تلك يشير لي أن أمرَ نضج أنوثة ريم لا يعنيه أو لا يعنيني أنا، بعد أيام طلبتُ من أمي مرة

أخرى أن تخطب ريم بشكل رسمي فأنا أحبها، أكدت أمي بشكل واثق أنها لي رغم مخاوفي من ياسر، وعند زيارتها لنا مع أمها حدثتهما أمي عن رغبتها في أن تكون ريم من نصيبي فردت أمها :

- يصير خير، لكن عندما يكبران قليلاً.

سألتُ أمي بعد مغادرتهما عن رد ريم فأخبرتني أنها لم ترد سوى بابتسامة، مؤكدة لي أنها ابتسامة الرضا، ورغم شكوكي في الأمر إلا أن تخيلي لابتسامتها منحني زاداً لسنوات.

مضت طفولتي شقية إلى حد كبير بتأثير من ياسر، فبعد أن دخلت المرحلة المتوسطة بدأت لعنة السرقة تسيطر عليه، وظل هو يصر على إشراكي في كل عملية فكنا نذهب إلى دكان (شرقي) وهو شيخ ضعيف البصر يبيع الحلويات والمعلبات وسجائر «أبو بس» المشهورة بصورة القط الأسود على علبة حمراء تغري الناظر بالتدخين، وليس لدينا قروش لأن العملة شحيحة وتكاد تكون مفقودة في أغلب البيوت، فيسرق ياسر ما تصل إليه يده من المعلبات والسجائر ويدفع له بعض الهللات، وبعد حين تطورت فكرة مجنونة عند ياسر حيث صار يبرد الحجارة إلى أن تصبح على هيئة قروش ونشتري بها من شرقي بعض الحلويات بينما تكون يد ياسر قد جمعت بعض علب التونة والجبنة والسجائر، بعد حين اكتشف أبناء شرقي أن والدهم يعود إلى الدار ببعض الحجارة فأدركوا أن هناك من يستغل ضعف نظره ويغشه فتناوبوا على البيع في الدكان ما جعلنا نحجم عن السرقة وقتاً.

بعد حين تطورت سرقاتنا من سرقة المعلبات والسجائر إلى سرقة

دراجة نارية يغفل عنها صاحبها، أو موتور ماء خارج منزل لمحاولة بيعه، أما سرقة الدجاجات من السوق أو من القناني، أو تلك التي تنام على فروع الشجر في أفنية أصحابها فغدت شبه ليلية، لقد تعودنا على أكل الدجاج المشوي على الجمر في الخبت، أو في البيت المهجور، وأحياناً نسرق بعض الحملان التي نجدها مع قطيع الشياه التي لا يوجد معها راع خارج المدينة، وإذا شعرنا بأحد يطاردنا تنادينا بأسماء بعض شباب الأحياء الأخرى فتارة يناديني ياسر بعلي خمج وأناديه بعبده عيدروس، وكثيراً ما كانت تجرنا مغامراتنا إلى مضاربات مع أبناء الأحياء الأخرى وخاصة أبناء حي البحري كعلي خمج الذي ظل يتحرش بنا ويجمع أقرانه هو ورفيقه «عبده عيدروس» لضربنا إلى أن قام ياسر ذات ليلة بشج رأس علي خمج بهراوة جعلته ينزف دماً، وتدخلت دورية الشرطة لفض التشابك، وكانت أصعب موقعة حصلت بيننا عندما أصر ياسر أن نسرق كرة علي خمج البلاستيكية لنلعب بها بدلاً من كرة القماش التي لدينا فضربَنا «علي» حتى أدمانا، وشج رأسي بحجر بعد أن أشبعني ضرباً باللكمات ورفساً بالأرجل حتى ظننت أنني سأموت، وبعد أسابيع قام « قاسم عدوان « صاحب المزارع والدجاج بتهديدنا بالضرب، أو تسليمنا للشرطة بسبب معرفته لنا عندما سرقنا من دجاجاته وقد كان يترصّد لنا، لكن ياسر أصرّ بشيطنة أن يحرق زرع «قاسم» في المساء دون أن أستطيع ثنيه خوفاً من مشاكل كبيرة لا أريد أن أوقع أمي فيها، وعندما رأى الناس الحريق يلتهم قصب الذرة تسابقوا لإطفائه لكنهم لم يستطيعوا، وبرغم شكوك قاسم في ياسر إلا أنه آثر الصمت، وظلت عينه تلاحقنا من أجل الوقيعة بنا حتى وصلت البلاغات إلى الشرطة والتي بدورها أوقفتنا ذات مساء بعد أن

كثرت شكاوى الناس، فتتبعتنا وقبضتْ علينا وفي حوزتنا العديد من المسروقات منها، دراجة وثلاث دجاجات، وخمس علب سجائر أبو بس وبعض الخبز، وتم التحقيق معنا، ثم توقيفنا ليومين وأخذ التعهد بعدم إقدامنا على شيء من ذلك فيما بعد.

لم يتوقف ياسر عن السرقة فقد أراد السطو على محلات الملابس والبضائع الجديدة التي وصلت من أشهر كمحلات الهدايا والعطور للبحث عن نقود، وعندما أبلغني بعزمه على ذلك أبديت اعتراضي فتراجع.

بقينا بين الحين والآخر نذهب ليلاً لنلتهم دجاجة، أو معلبات تونة، أو خوخاً أو أناناساً، ثم نعود للتجسس على البيوت عند منتصف الليل حيث نتوقع ممارسات جنسية ساخنة فنقصد بيت العم حمزاوي لكون الأنين يصل إلينا بمجرد المرور بمحاذاة النافذة، وأحياناً نقصد بيت قاسم عدوان في طرف الحي الشرقي حيث يترك الفانوس بنصف اشتعال فنرى جسدين يصعدان ويهبطان في تشابك محموم دون همسات، وكلما أردت الذهاب تجاه بيت ريم يصدني ياسر الذي دأب على إيصالي إلى البيت وكأنه يريد التأكد من استلام أمي لي ليذهب لشأنه.

حي المدقوق

لحينا من اسمه نصيب وافر، فأغلب سكانه من الفقراء الذين يعيشون الكفاف في أبنية من الطين تتساقط بعض أجزائها عندما يملأ المطر أرض الخبت، ويلتقي ماء البر مع ماء البحر فيعيد أهلها بناء ما تهدم، أما تلك البيوت المبنية من الحجر الجيري المنتزع من جوانب البحر فتصمد في الغالب أمام زحف المياه لكن الملوحة المنبعثة من الأرض تنهكها فتتآكل، حي المدقوق جزء من أحياء ثلاثة تشكل المدينة الساحلية الصغيرة إلى جانب الحي الشرقي، وحي البحري مع بعض البيوت المتباعدة قليلاً خارج الأحياء وتلك التي تنتشر بين المزارع من جهة الشمال، وتتصل الأحياء فيما بينها من خلال أزقة ترابية تضيق وتتسع من مكان إلى آخر، وبين تلك الأحياء تقع « البَرَحَة «وهي ساحة واسعة في جانبها الشمالي يقع المسجد الكبير، وتحتضن تلك الساحة أماكن لاستقبال الصيادين العائدين من البحر، وأماكن لتوديع المسافرين إلى خارج المدينة للحج أو التجارة، وفي مكان آخر من البرحة الترابية يقام سوق الاثنين الذي يجتمع فيه الباعة من الرجال والنساء مع المتسوقين من المدينة وخارجها حيث تغطي بعض جوانب السوق مظلات من سعف النخل منصوبة فوق أعمدة من خشب السدر أو جذوع النخل وخاصة سوق النساء اللاتي يعملن في بيع الخضروات

والبيض والسمن والورد، وبعض الخزفيات والأواني الفخارية، وبعض السعفيات كالمفارش وأدوات البيوت، وبعضهن يمارسن بيع المواشي إلى جانب الرجال، بينما يبيع الرجال المواد المستوردة من أواني التوت[1] والزجاج، والمواشي والقصب واللحوم والسمك، وفي السوق تختلط أصوات نساء المدينة مع رجالها بين من يروج لبضاعته ومن يفاوض ليشتري، فيكون يوم الاثنين يوم صخب محبوب في المدينة، يشارك فيه أغلب السكان، ويسود البيوت في أحياء المدينة الثلاثة تواصل حميم على الدوام، ومشاركة في الأفراح كالزواج والختان والاحتفاء بالمواليد التي كانت تقام في البيوت ويجتمع لها أغلب سكان الأحياء، كما يتشاركون في الأتراح عند مرض، أو موت، أو حريق، أو فاجعة دنيوية أخرى.

ولا يخلو السوق من خلافات ومشاغبات كتلك التي حدثت بين علي حمدي بائع السمك من سكان حي البحري، وقاسم عدوان من حي الشرقي في سوق السمك ذات يوم وشهدها خلق كثير، لكن كبار رجال المدينة قاموا على الفور بمعالجتها، أما المشاكل التي تتم في المزارع فكثيرة قياساً على ما يحدث في السوق من ذلك مشكلة ظافر حسن من سكان حي الشرقي، وجبران مروعي من حي المدقوق على أطراف المزارع بسبب خلاف طويل على مجرى الماء القادم من الجبال والذي يسقي المزارع حيث اشتبك الاثنان ذات خصام فضرب ظافر مؤخرة جبران بمسحاته المستخدمة لجرف التراب، وتعالى الخصام فتراكض الناس للفصل بينهما، وتم الصلح بأن يقدِّم ظافر حسن وليمة لجبران

(١) أواني التوت : كلمة محلية مستخدمة لنوع من الأواني النحاسية.

مروعي شهدها كثير من أقرباء الطرفين والحاضرين للصلح، وتم العفو.

كنا نجوب بيوت « المدقوق » صغاراً حيث أغلب بيوتها مشرعة جلّ النهار لا يمنعنا أحد من الدخول، وعندما كبرنا قليلاً كنا نسعد بالأعياد والأفراح متنقلين من بيت إلى بيت نتشاطر الفرحة والسرور، وعندما يموت أحد السكان نحزن مع أمهاتنا حين يبكين، لكن حزننا لا يدوم أكثر من لحظات في الغالب لنعود للعب.

كانت السيارات التي تأتي البَرَحة نادرة جداً، وغالباً ما تأتي يوم السوق، وهي لأناس من خارج المدينة احترفوا نقل المسافرين، وأغلب السكان يعتمدون على الحمير أو الجمال في نقل الأعلاف وأغراض المنازل والركوب إلى المزارع، والذهاب إلى القرى المجاورة للمدينة، لكن أعداد الحمير كثيرة وزائدة عن الحاجة فلكل بيت حمار وزيادة غير تلك التي لا يملكها أحد، وعند خروجنا للخبت أنا وياسر في المرحلة المتوسطة والثانوية كنا نمسك ببعض ذكورها ونتسابق، نركب فوق ظهورها فتنطلق بنا في الخبت، بعضها لم يتدرب على الركوب فيرفسنا، ومع ذلك كان يمتعنا الركوب عليها لأنها تنطلق على غير هدى إلا أننا نجيد التشبث بها ولا نسقط إلا نادراً حتى يعود الحمار إلى رشده، ولأن ياسر أطول مني فقد كان يستطيع أن يشبك بين رجليه حول بطن الحمار فلا يسقط أبداً، أما أنا فسقطت ذات مرة في تبة رملية لأنني لم أستطع « التلبيط « كما يفعل ياسر فأصابتني بسببها شجة في جبهتي أصبحت علامتي الفارقة.

عندما نرى الحمير ترتاغ نخرج أسئلتنا للكبار: لماذا تتمرغ الحمير في التراب فتبدو وسخة ؟!، أجاب أبي: إنها تطرد الذباب والحشرات التي تؤذيها ولو لبعض الوقت، أما الفرحي فقال: إنها تتشمس، وتستمتع بحرارة الرمل الحارقة، وزاد في حيرتنا ما يفعله الحمار حين يشم الأنثى فينطلق إلى مسافات بعيدة راكضاً مكشراً عن أسنانه وكأنه يضحك، ثم يعود بعد وقت ليطأ الأنثى، وقد أتت الإجابات مختلفة ففي الوقت الذي أجاب فيه أبي: إنه يستعرض قوته أمام الأنثى، قال عوض: إن الحمار يعبّر عن مشاعره الجذلى لأنه حين ينطلق راكضاً ومكشراً عن ثنيّته فإنه أيضاً يطلق نهيقاً متقطعاً أشبه بالشهيق.

وللحمير ممارسات غريبة كبول بعضها مكان بعض، ورفضها العبور فوق المياه الجارية مهما تعرضت للضرب من قبل أصحابها، وقد قص لنا الفرحي: أنه عندما ذهب إلى إحدى القرى جهة الجبال لشراء عدة أمداد من الحَبّ شدّها على حماره، وعندما عاد وجد سيلاً في الوادي فأخذ الحمار إلى مكان يسهل عبوره فأبى الحمار الدخول في الماء رغم كل محاولات عوض مما اضطره إلى حمل الحَبّ على كتفه ومباغتة الحمار برفسة قوية برجله ألقته وسط السيل الذي حمله إلى جهة لم يعلمها أحد، وبقيتْ لدينا أسئلة أخرى حول الحمير لكننا نخجل من ذكرها، خاصة ما يتعلق بأعضائها الجنسية، وسلوكها عند النكاح والتبول.

أُسْرة المقروش

تخطّفَ الموت أبناء «يحيى المقروش» الخمسة، ولم يبق له إلا ابنته ريم التي أحبها وبذل لها الغالي والنفيس خاصة وأنه من بين قلة قليلة من سكان المدينة الذين يعملون في وظيفة حكومية، فقد كان موظفاً في جمارك الميناء يذهب إلى عمله صباحاً ماشياً عبر طريق ترابي يمتد من حي المدقوق مروراً بالحي البحري وصولاً إلى الميناء الصغير، فيدلف إلى مكتب متواضع تجُمرك فيه حمولة السفن القادمة إلى الميناء، ثم يعود مع المغرب فلا يجد وقتاً لمشاركة رجال الحي جلساتهم العصرية في أماكن معدّة خارج أبواب البيوت للحديث وشرب القهوة معهم، ورأيته مرات يقضي وقته في أول الليل في تجميع حسابات وتدوينها في سجل كبير في غرفة صغيرة خاصة به، وله شخصية هادئة يصعب معرفة ما وراءها، لا يتحدث كثيراً مثل أبي، ولا يضحك عندما تقهقه زوجته صفية لأمر ما، وإنما تندّ منه ابتسامة عريضة في أقصى درجات تفاعله.

بقيتْ «صفية الباشق» خير زوجة معينة لزوجها، وصابرة على فقد الأبناء فصرفتْ جلّ اهتمامها لإسعاده فلا تغادر بيتها في حضوره إلا

ما ندر، وتميزت بهدوئها ورويتها فلا تشارك النساء أحاديث الغيبة وممارسات النميمة حيث تكتفي بالصمت في أغلب الأحيان، وقد تضطر للمشاركة بضحكة عابرة، أو كلام موجز فلقبتها النساء بـــ(البصّامة)، ورغم ذلك فالكل يحترمها.

ولصفية صوت جميل حين تنشد في الأفراح تزينه بحة تجعله أكثر شجناً، وتتسابق النساء على الإنشاد معها والترديد أثناء اللعب:

(صيد لا تطلعْ جبلْ وانتَ حاسرْ

ارعى بطون الأوديهْ وانتَ ماشي

انصحْك لا تصحب قوي وانت حاسرْ

يفرضْ عليك بقوّته لانت ماشي).

كانت النساء تمضين ساعات في لعب الخطوة على الطبول، وتتعالى أصواتهن فتصيب الرجال غيرة ليتسابقوا على ممارسة رقصة السيف والعزاوي .

ومع أن صفية كما قيل: مقطوعة من شجرة فلم يبق لها أهل، إلا أن طيبة المقروش عوضتها عن شعورها بفقد الأهل والأبناء، وبقيت ابنتها ريم تستولي على كل حنانها.

لوجه ريم استدارة جميلة، ولعينيها بريق لامع، ولشعرها انسدال

ساحر، تضحك فيرتعش قلبي الصغير، امتدت قامتها مع الأيام فلم تصل سن البلوغ إلا وهي تساوي أمها في الطول، كنت أدخل عليها غرفتها الصغيرة أيام الطفولة حيث تنام في حندولها [1] المربوط بجانب سرير أمها الخشبي الذي صُنعت قوائمه الأربع وعوارضه من خشب السدر وحباله من سعف الدّوم [2]، وعندما كبرت قليلاً كانت تنام على السرير الصغير المعد لها قريباً من الأرض لتلافي الضرر عند سقوطها منه، وكلما غابت أمها عنا في عملها البيتي أحتضن ريم فتفر مني وتبكي ما يسبب غضب أمها فترسلني لأمي بحجة أنها تناديني.

كانت صفية تصنع بعض الحلوى المحلية (المشبّك) من الدقيق والزبدة والسكر وبعض البهارات الملونة حيث تخلطها بالماء ثم تضعها على نار هادئة حتى يجف الماء وتستوي الحلوى، وبعد أن تبرد توزع جزءاً منها على جيرانها، وكلما أتيتُ إليها أعطتني قطعة صغيرة فأنتشي بأكلها، كنت أحب أمّ ريم جداً لأنها تغمرني بحنانها بين الحين والآخر أدركت فيما بعد أنها ربما كانت تعبّر عن مشاعر جياشة عن حنينها لأبنائها الذين ماتوا وترى من خلالي أحدهم .

بعد أن كبرتْ ريم واختفت وراء عباءتها السوداء لم يبق لي منها إلا صورة الطفولة وبعض النظرات المختلسة وحديث أمي عن سلوكها وأخلاقها وزيادة جمالها، إذا أرادت أمي أن تبعث في نفسي السرور

(١) الحندول، أو الهندول : مرجيحة من القماش يوضع فيها الطفل ويتم هزها لينام .

(٢) شجر الدوم: ساحلي يشبه النخل إلا أن ثمره أكبر في الحجم، ويسمى (البهش) .

تحدثتْ عن وجهها الذي يشبه البدر، وقامتها المشوقة التي تشبه عود البان، ونهديها البارزين كحبتي رمان ناضج، وأحياناً تنشد لي:

(يا امزينْ روّح معانا واسقيكْ مجرا
من عسلن قد جنيتوه وامجاني آنا
واسقيك كاس بكفي
هنيِّتْ ·· هنِّيتْ).

وكأنها تستحث قريحتي لأقول شعراً في ريم يعكس حالة الشوق إليها.

صدمة ياسر

تعرض ياسر في سن مبكرة لصدمة حقيقة مولده بعد أن سمع تهامس بعض أقراننا ذات يوم حول عدم انتسابه إلى أبيه (عوض الفرحي).كان في الصف السادس الابتدائي عندما عصفت به موجة اضطراب نفسي بسبب الخبر لكنه أسرّ الأمر في نفسه، ولم يبده لأحد معتزماً معرفة الحقيقة من أمه (نورة المكدشية) دون أن يعرف كيف ومتى ؟.

لاحظتْ أمه حزنه وبدا عليه الإهمال بعد أن كان متفوقاً فسألته مراراً عن سبب تغيّره فلم يجبها، فدعتني مستفسرة فلم أستطع البوح لها بما سمعته من الطلاب خوفاً منها، وقد تظاهرتُ لياسر بعدم سماعي لما دار حوله أثناء حديث الطلاب عندما همس في أُذني : ماذا يقولون ؟.

رغم تجاهلي للأمر إلا أن ياسر يدرك أنني سمعت كل شيء، وبعد أسابيع ثلاثة سألني: إن كنت أعرف عن حقيقة الأمر فهونت عليه :

– لا تشغل بالك بأقوال الطلاب إنهم يحسدونك لتفوقك ويريدون أن تنشغل عن دروسك.

– لا يمكن أن يكون الأمر مجرد حسد.. لا بد من وجود سر ما.

قرر ياسر مصارحة أمه بالأمر فغضبت جداً دون أن تعطيه إجابة شافية، بل أخذت تشتم الناس بعد أن سألته مراراً من أنبأك هذا؟!

– سمعتْ بعض الطلاب في المدرسة يتهامسون.

– إنهم يريدون بك شراً يا ولدي فاحذرهم، ولا تجالسهم أو تستمع إليهم.

لم تحدد إجابات نورة المكدشية الحقيقة لياسر فزادت شكوكه، لكنه تظاهر بالاقتناع وأسر الأمر في نفسه.

عرضت نورة أمر تغيّر سلوك ياسر على زوجها عوض وأخبرته الخبر فأغضبه ما سمع، وتحول الأمر عنده إلى شغل شاغل متسائلاً مع زوجته عمّن يكون وراء الخبر ؟!

– هل تعرفين من سرّب هذا الحديث ؟

– لا.. لكني أشك في (حليمة مجدلية) فطالما حرصتْ على إشاعة الأخبار الضارة بأهل الحي، وهي تعلم أننا لا ننجب وأن ابننا لقيط.

– اللعنة عليها تلك المرأة الفاجرة.

ذهب عوض إلى شاطئ البحر غاضباً وهو يضرب كفاً بكف مردداً (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، ولم يشعر بنفسه إلا حين وقف أمام قارب العمدة المتحطم الذي كان يستأجره ليجلب به السمك من البحر حيث وجد ياسر في بطنه قبل ثلاث عشرة سنة.

تذكر عودته ذلك اليوم مسرعاً يحمل الطفل فرحاً إلى نورة التي كادت تفقد صوابها من الذهول:

- وجدتُه في القارب .. إنه رزقنا من السماء .. ابننا الذي لم ننجبه.

بحثت نورة عن حليب في ثدييها لترضعه فاكتشفت أن الطفل يمص سائلاً أبيض متدفقاً.

معجزة حلت بالبيت الفقير الخالي من الأولاد فقد أصبح فيه صراخ طفل، ولكنها كانت كارثة أيضاً فأسئلة الناس (من أين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟) تحتاج إلى إجابات.

ظلت عائلة الفرحي تنتظر مولودها لسنوات بسبب معاناة نورة مع (أم الصبيان) وهي شيطانة خبيثة سكنت في رحمها لتقتل أولادها الذكور، ولأجل ذلك بذل زوجها عوض الفرحي أموالاً طائلة حيث باع الكثير من أملاكه الزراعية من أجل علاجها عند أطباء شعبيين وصفوا لها الكثير من الأدوية، وتجرعت نورة المكدشية العديد من المشروبات المرة كالحلبة بالثوم، والحلبة بالمر، وآخرون دهنوا فرجها بزيت حبة البركة، وزيت الخروع والسمسم مع إضافات عشبية، وبخّرها آخرون بأعشاب مخلوطة مع حبات الفلفل الأسود والجاوي أبو كندرة، كل تلك المحاولات من أجل طرد الشيطانة الكامنة في رحمها، وبعد محاولات فاشلة عديدة لسنوات قاربت العقدين ظل الفرحي يدفن في كل عام أو عامين قطعة لحم مضرجة بالدم إلى أن جاءت نورة تزور جارتها أمي لتبارك مولدي وفي حضنها ابنها اللقيط ياسر، كبرنا معاً، ولعبنا

كثيراً واختلفنا على أشياء كثيرة، وكلما عدت لأمي باكياً من ياسر تقول بصوت خفيض: الله يكفينا شر ابن الحرام..!

لم أدرك ما ترمي إليه أمي فقد كنت أعود للعب مع ياسر في أقرب وقت، وكلما شاركتنا ريم اللعب يمتد بنا الوقت أكثر، كبرنا مع الأيام، وغرقنا في السرقات والعبث وممارسة الأذى، وكان ياسر كلما كبر تكبر معه عدوانيته التي بلغت ذروتها في المرحلة الثانوية، فلا يمر يوم دون أن يرتكب جرماً كأن يتشاجر مع أحد الطلاب لسبب تافه فيشج رأسه بحجر، أو عصا، ويعتدي على المارة في طريقه للمدرسة، أو عند العودة منها بالسب والشتم، أو قذفهم بالحصوات، واستمرأ تعذيب الحيوانات والطيور فيرمي الكلاب والقطط بحجارة ليكسر قوائمها، ثم يجهز عليها بعصا غليظة فيضرب رؤوسها حتى تفارق الحياة، ويمسك بالجراء والقطط الصغيرة فيشطر الواحد منها إلى نصفين ويرمي به في طريق المارة، أو يسلخ جلودها وهي حية مستعرضاً قوة عضلاته، وكلما شاهده أحد الناس دعا عليه بالويل والثبور فيضحك، أو يبادله الشتائم، وفي الخبت يطارد العصافير ويتسلق أشجار السدر والدوم ليهاجم أعشاشها فيأكل البيض، وينزع رقاب الصغار، ويشوي بعضها أحياناً خاصة فراخ اليمام، أو طائر « أبو منقار» لكونها كبيرة الحجم متلذذاً بحالات الهلع التي تصيب أمهاتها وما يصدر عنها من صراخ ومقاومة لمنعه من الوصول إلى صغارها، وكلما أبديت انزعاجي من ممارسته يصفني بضعيف القلب فأصمت على مضض خوفاً من أن يتسبب ردي المعترض على سلوكه العدواني بعراك، أما إذا ذهبنا إلى شاطئ البحر فيقضي وقته في قتل السلطعونات، وتكويم ضحاياه

منها، ثم يقذفها في البحر لتأكلها الأسماك، كانت نقطة ضعفه خوفه من البحر فلا يجرؤ على الدخول فيه والسباحة فأستفزه وأنا في الماء وأجدها فرصة لرد شتائمه لي بالضعيف فأصفه بالجبان فيضمرها في نفسه ليردها لي في مكان آخر بشكل أكثر مرارة وقساوة، خاصة عندما كنا نقصد الأحياء الجديدة للمضاربة مع شبابها فأتردد كثيراً خوفاً من إصابة جسدية غير متوقعة كطعنة من سكين، أو ضربة حجر في الرأس أو الوجه تسبب لي عاهة أو تشوهاً.

في حي البحري كان» علي خمج « هو الوحيد الذي يستطيع إيقاف ياسر عند حده، فعندما كنا نذهب لمضاربة أبناء حي البحري يتصدى لنا علي خمج بالضرب العنيف حتى تسيل دماء ياسر لكثرة مقاومته له أما أنا فكنت سريع الاستسلام، وإذا صادف وجود عبده عيدروس فقل علينا السلام !. ورغم صلف ياسر فإنني لم أتوقف عن محاولات ثنيه عن ممارساته العبثية فقلت له مرات:

- ألا تخاف أن تؤدي بنا أفعالك إلى مشكلة كبيرة ندخل بسببها السجن أو نجلد ؟!.

- وماذا في السجن من عيب أو مشكلة ؟، أحياناً أشعر أن السجن أرحم من الحياة خارجه.

- السجن يا ياسر سيئ جداً في نظري، غرفة مظلمة، ومعاملة قاسية، وسمعة سيئة، لا يمكن أن يحترمك المجتمع بعد دخوله مهما عملت.

- لكنه تجربة تجعلك أقوى وأقدر على مواجهة الصعاب، ولا تهمني انطباعات الناس، علينا أن نخوض الحياة بكل ظروفها.

ظل ياسر على عناده لا يفعل إلا ما يحلو له دون مراعاة لمشاعر أحد، حتى أنا صديقه لا يأبه لرأيي، ويستغل ترددي الدائم في ضمي إلى مشاركته.

حليمة مجدلية

نشأت حليمة يتيمة في بيت جدتها لأمها بعد أن فقدت والديها اللذين ماتا بالطاعون، إلا أن لوالدها «مجْدَل» أملاكاً زراعية كثيرة جعلت الخطّاب يتسابقون على طلب الزواج منها عند بلوغها سن الرابعة عشرة فاختارت «عطيف» من بين كل الخطاب الذين توالوا لطلب يدها، كان طمع عطيف في الأملاك أكثر من حبه لها ما جعل علاقتهما غير حميمة، فما هي إلا أشهر حتى عرفت أطماع زوجها من خلال محاولاته الدائمة طلب تنازلها عن بعض أملاكها مقابل واجب يؤديه، أو مبالغ زهيدة يدفعها لها، وقد استطاع أن يمرر مكاتبة بالبيع لجزء غير يسير من أرضها مستغلاً عدم معرفتها بالقراءة والكتابة فقررت طلب الطلاق، وكرهتْ بسبب عطيف الاقتران بالرجال فعاشت مطلقة إلا أنها لم تبخل على نفسها بالاستمتاع بأحدهم كلّما سنحت لها الفرصة مستغلة بعض جمال ونعومة أغرت بها جلّ رجال الحي .

ظلت حليمة بتمردها حديث الرجال كلما خلا بعضهم ببعض لسنوات، وهي أيضاً حديث النساء اللاتي حمل بعضهن لها الكراهية بسبب سمعتها في إغراء أزواجهن، وعدم خجلها من البوح ببعض أوصاف من مرّ بها. وبقيت جارتها نورة من أكثر النساء كرهاً لها بسبب الشكوك في أنها من أشاع خبر ياسر بأنه لقيط.

كان ياسر يدعو حليمة يا خالة، وهي تبدي له اهتمامها فيمر بدارها في الغالب، تقبّله بحب، وأصبح يأوي إليها بين الحين والآخر أيام الثانوية رغم تحذير أمه الدائم من الحديث مع حليمة دون أن تعلم أنه يقضي ساعات عندها لشعوره بحنان تمنحه له وهو في أشد الحاجة إليه، وأحياناً تقوم بإعداد وجبة دسمة له من عصيدة الذرة والسمن البقري، أو كبسة الرز بلحم خروف مقدد من أضحية العيد، اصطحبني ياسر مرات فرأيت في عيني حليمة حناناً لياسر لم أعرف سببه، لكني أوّلتهُ برغبتها الجنسية. وكانت تشجعني على صحبته، لكن ما لفت نظري أنها تشجّعه على بعض السلوكيات العنيفة تجاه بعض الرجال رغم حبها له، وتزين له السرقة من دجاجاتهم ومزارعهم وكأنها تنتقم به من أغلب جيرانها.

قررتُ في داخلي عندما قرأت آية :﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾[1] في نهاية المرحلة المتوسطة أن أقلع إلى الأبد عن السرقة رأفة بأمي التي سيصيبها مآلي مسجوناً أو مقطوع اليد بانتكاسة نفسية، بعد أن بنت آمالها العريضة على مستقبلي التعليمي والوظيفي فأنا من بقي لها في الحياة فحاولت الابتعاد عن ياسر الذي لم يقلع عن ممارساته الشائنة لكنه لم يمنحني فرصة اتخاذ قرار كهذا، وبعد أن افترقنا بسبب طرده من الثانوية وجدتها فرصة سانحة في الابتعاد عنه وعن السرقة والعبث، لكن شيئاً ما يتعلق بعلاقتي بريم يجعلني أراقب ياسر بين الحين والآخر حتى رأيتها تذهب إلى منزل حليمة ذات عصر، وبعد وقت رأيت ياسر يطرق

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

الباب فجن جنوني، وعدت إلى أمي لأطلب منها الذهاب إلى حليمة لمعرفة ما يدور بين ياسر وريم فنهرتني عن التجسس قائلة:

– دع مراقبة الناس، وإذا ريم تحبك فلن يستطيع أحد أخذها منك، وإذا اختارت العبث مع ياسر فذلك شأنها، وهي بهذا لا تستحقك.

لم يقنعني كلام أمي، لكنني لم أجد وسيلة لإطفاء النار التي تعتلج في صدري سوى الذهاب إلى البحر للسباحة.

عندما عدت من البحر متعباً وجدت أمي قلقة علي بسبب تعلقي بريم، بدت حزينة بعض الشيء فتوجستُ معرفتها لشيء لا أعرفه، لكنها نفت ذلك ونصحتني كعادتها دائماً بالمحافظة على نفسي ودراستي مؤكدة أن الحياة لا تُبنى بالعواطف، والرجل الحقيقي لا ينجرف وراء المرأة.

– أحبها يا أمي وأريدها زوجتي في المستقبل، ولو تزوجتُ بياسر سأجن.

– إذا تزوجت بياسر فهي لا تحبك وسأزوجك أجمل منها.

ظلت حليمة تمارس حضورها الكوميدي الساخر من الرجال فتحيل جلسات النساء إلى قهقهات عالية عندما يجتمعن في مناسبة بسبب أوصافها الجريئة للرجال الذين مروا عليها دون أن تذكر أسماءهم :

– أحدهم يرضع كأنه طفل غاب عن ثدي أمه فترة من الزمن،

وآخر يصول ويجول بالكلام لكن كرشه يمنعه عن الوصول إلى عمق البير فينثر ماءه وينام كالثور، وبعضهم كالحمار يتعالى شهيقه ونهيقه حتى ينطفئ ليتحول بعد وقت قصير إلى خرقة بالية.

كنتُ عندما أسمعُ قهقهات النساء تتعالى أعلمُ أن حليمة تتحدث فأسرع لسماع ما تقوله متظاهراً بعدم المعرفة، وبعد أن تنتهي من الوصف دون أن تشاركها الحاضرات كشف المستور تسر لها إحداهن عن رغبتها في معرفة صفات الذي يرضع، وأخرى ألحّت على حليمة أن تخبرها بشبيه الحمار في النهيق، أما صاحب الكرش فلم يعرنه اهتماماً، كانت نورة مكدشية الوحيدة التي لا تشارك النساء الضحك، ولا تزيد في الغالب على ابتسامة يفتر ثغرها عنها عنوة لتعود وتبدي غضبها من بجاحة حليمة، وتصفها حين تذهب بالفاجرة التي تسحب ألسنة النساء إلى الحديث عن أسرار بيوتهن وخصائص فرش أزواجهن وكأن حليمة لامست بعض أوصاف عوض، وعندما تنتبه لي حليمة تتجه إلي متسائلة :

– ما جابك يا وحيد ؟!.

أخجل قليلاً فتقبلني في فمي فأفر هارباً على وقع ضحكات النساء.

لم تكن حليمة مجدلية ساخرة فقط، إنها حكيمة أيضاً فعندما قالت امرأة حمزاوي الثانية التي لم تتجاوز الخامسة والثلاثين: إن كل الرجال حمير، ليس فيهم إلا متعة واحدة ناقصة، ربما في إشارة إلى كرش حمزاوي، ردت عليها حليمة :

- النساء لسن كاملات أيضاً – فالمرأة التي تستحق اهتمام الرجال بكمالها نادرة، وفيهن من متعتهن في نصفهن الأعلى، وأخريات في نصفهن الأسفل، وبعض النساء لا متعة فيهن على رأي المثل : (لا وجهٌ في مجلسٍ، و لا طيزٌ في مرقد).

مقهى النجوم

يقع مقهى النجوم في نهاية الحي البحري من جهة البحر حيث تهب نسمات عليلة تحملها الرياح مصحوبة برائحة البحر المشوبة بعفونة محببة، بدأ المقهى مع بداية وصول المولدات الكهربائية الصغيرة حيث أنشأه (جرادي) وهو رجل يمني أقام في المدينة منذ زمن بعيد وكوّن أسرة، وعمل في أعمال شتى منها بناء جدران المزارع بالحجر، وإنشاء بيوت الصفيح بطريقة تمنع دخول المطر.

بدأت فكرة المقهى بأن اختط جرادي مساحة تزيد على مئتي متر طولاً في مئة متر عرضاً وأقام سقفاً من الزنك في زاوية، وأحاط بقية الأرض بالبلك، ثم وزع أعمدة من خشب الدوم في زواياها ومدّ عليها أسلاكاً تحمل لمبات ملونة بالأخضر والأصفر والأحمر، ووضع مجموعة من الأسرة الخشبية التي تنتجها أسرته تحت السقف المصنوع من الزنك، وبعد عصر كل يوم يخرجها على امتداد أرض المقهى، ويمد بعض الحصر المصنوعة من سعف النخل ليجلس عليها المرتادون الذين يمارسون لعب (الدومينو، والكيرم، والبلوت)، ويطوف عليهم غلمان من بني جلدته بالشاي وشيَش الجراك المصنوع من التفاح، ويعتبر مقهى النجوم ملاذاً لأغلب رجال المدينة الذين يفرون من رتابة

البيوت حيث يقضون فيه أوقاتاً للحديث وشرب الشاي، وبعضهم يزيد بتدخين المعسل.

عندما تضيء المولدات بعض أنحاء المدينة بالنيون الأبيض يكون مقهى النجوم قد ملأ محيطه بألوان جميلة من الإضاءة التي تجلب إليها كل الكهول والشباب فتحول المكان بعد كل مغرب إلى مهرجان صغير تتعالى فيه أصوات الغلمان:

- براد عدني

- شيشة لعمك عوضة.

- براد شاي كبير تلقيمة والحلا برا.

كما تتعالى أصوات فريق البلوت (حكَم، صنْ، سِرى)، وصراعات لاعبي الدومينو على الشيِّش، واختلافات حادة على فوز يحيى المقروش وقاسم عدوان بالغش.

كان جرادي أول من أدخل هوائي التلفزيون إلى المدينة، ويتكون من عمود من الألمنيوم منتصب في طول متر ونصف تقريباً وفي أعلاه عمود آخر معترض يحمل على جانبيه العديد من الريَش، وقريباً من قاعدته علبة تتصل بها أسلاك التلفزيون الذي يعرض القناة المحلية.

كنت أنا وياسر مع أبي والفرحي وحمزاوي أيام الدراسة في المرحلة الابتدائية نتردد على المقهى لمشاهدة المسلسل المصري (وتوالت الأحداثُ عاصفة) بطولة سهير البابلي، وعبد الله غيث، وحسن مصطفى، وليلى علوي، وأحمد بدير، وإخراج حسام الدين، وتدور

أحداثه حول العميد رشدي إبراهيم الذي يقوم بمطاردة رئيس أكبر عصابات تهريب الذهب، وهو مجرم شديد الذكاء يُعرف بالبرادعي، يمتلك المهارة في التغلب على خطط الشرطة، وعلى محاولات العميد رشدي في القبض عليه بمنتهى الذكاء، بل ويتصل بالعميد رشدي تليفونياً لتحديه، وتستمر المطاردة بينهما وسط أحداث درامية غير عادية تشهدها حياة رشدي وتوزعت بسببها اهتماماته بين حمل زوجته بعد عشرين عاماً من الزواج، وخطورة الحمل على حياتها، وبين انجذاب بنت الجيران المراهقة له وانشغاله المتواصل بالعصابة، وبعد مطاردات وأحداث بوليسية نجح العميد رشدي (عبد الله غيث) في التعرف على هوية البرادعي (حسن مصطفى) رئيس العصابة بعد إخفاقات عديدة في القبض عليه، وكانت عبارة : (أنا البرادعي يا رشدي) هي محور المسلسل لكونها العبارة التي يرددها رئيس العصابة في كل مرة يتصل فيها بالعميد رشدي لاستفزازه.

بعد نهاية كل حلقة من المسلسل تطل سميرة توفيق لتغني أغانيها الراقصة (على دلعونا، بدك تجي حارتنا، بيع الجمل يا علي) فيترك جميع من في المقهى ألعابهم ويتجهون نحو الشاشة لمشاهدة الغمزة الشهيرة لسميرة والتي يطلق الكل معها صرخة إعجاب، وبعض الشباب يرقص الدبكة مقلدين الفرقة المصاحبة ويرددون : على دلعونا وعلى دلعونا، راحوا الحبايب ما ودعونا.

لا أحد عارض وجود المقهى سوى خطيب الجامع الشيخ حصيف، فقد أصبح شغله الشاغل يخطب حوله كل جمعة : هذا مكان لايليق بالمسلمين أن يرتادوه لأنه مكان فسق وفساد، فيه ألعاب ملهية عن

الصلاة والذكر والعمل، وفيه مشروبات محرمة كالمعسّل والدخان، وفيه مناظر مخزية ومحرمة يشاهدها من يجلس في ذلك المقهى على التلفزيون من مسلسلات فاضحة وأغان ماجنة لنساء كاسيات عاريات ورجال فقدوا الحياء، ثم يختم خطبته بالدعاء على الكفار والفاسدين بالهلاك السريع فيختلس الناس نظرات إلى جرادي وكأنه هو المقصود فيغيظهم برفع يديه مؤمّناً على الدعاء، ومع كل ما قاله الشيخ حصيف عن المقهى إلا أن الناس يتوافدون إليه كل مساء، ربما هم يفعلون ذلك لأن الشيخ حصيف ليس من أهل المدينة، فقد قيل إنه وافد من مصر، وقيل من بغداد، واكتسب مكانته تلك من حفظه للقرآن والتغني به وتعليمه للصبيان، وليس في المدينة من يحفظ القرآن كاملاً غيره فأخذ الشيخ على عاتقه الإمامة في الجامع والوعظ والإرشاد في الأسواق و المناسبات.

كان عوض الفرحي يحب لعبة البلوت مع عوضة سائق الأجرة القادم من الشمال والذي يحمل الركاب المسافرين إلى جدة والطائف ومكة ويعود بهم، وعندما أحضر ورقة لعب جديدة اجتمع لها مجموعة من كبار رجال الأحياء، واختلفوا في ممارسة اللعب بها كونها تحمل في خلفيتها صوراً للأجهزة التناسلية بأشكال مثيرة، وفي بعضها تظهر ممارسات جنسية فاضحة، بعضهم شتم عوضة على هذه الأوراق الخبيثة، وبعضهم شكره لأنه بهذه الصور جدد حيوية الكهول للعودة لممارسة نشاطهم .

كنت أتلصص على تلك الأوراق عندما تُجمع من أحد اللاعبين مقلوبة فتظهر تلك الصور، حاولت أن أسرق واحدة لأتأملها لكني أعلم

أن أمري سيفتضح فوراً لأن أخذها سيخل باللعبة وسرعان ما يكتشف عوضة أنها سُرقت، بعد ما لاحظوا استغراقي في النظر إليها قال عوضة : ولدك يا فرحان خطير.. فتوجه لي أبي بالحديث :

– قم .. لا تشغل بالك بهذه الصور فتذهب بعقلك.

لم أذهب بعيداً.. فقط أخذت زاوية في جلستي وخففت من شدة تركيزي متظاهراً بعدم المبالاة لكني بقيت أنتظر انفضاض السمّار لعل عوضة ينسى واحدة منها فألتقطها.

كان عوضة يعد الأوراق بعد كل جلسة، ويتأكد أنها لم تنقص فهو يتوقع أن يقْدم أحد الكبار إلى أخذ واحدة منها لتشحذ همته عند العودة إلى البيت.

كنت أفتش بعد مغادرتهم تحت بساط الخوص علي أجد إحداها منسية، ولم أستطع أن أسرق إحداها ولكني بقيت أنتظر بداية لعبة البلوت كل مساء لأتابع الصور في الورق المقلوب، وعندما اجتاحتني ثورة البلوغ بعد عام ونصف كنت أستحضرُ الصور وأتخلص من توتري الجنسي بإفراغ ما في جسدي من ماء الحياة في فراش النوم.

ومع الأيام مضيت أمارس العادة السرية بشغف بعد أن اكتشفتُ لذتها حتى سرَتْ في جسدي أنيميا حادة، وشعرتُ بدوار دائم وحاجة للاستفراغ ما جعل أبي يأخذني إلى المستوصف الذي استقبلني فيه طبيب مصري عمل لي بعض الفحوصات، وسأل أبي عن طبيعة التغذية، بعدها سألني : – هل تمارس العادة السرية بعد أن لاحظ بعض التورم والانتفاخ في القضيب؟

- ما هي العادة السرية ؟

- الاستمناء باليد.

خجلتُ من الرد، وطأطأت رأسي فعرف الطبيب سرّ هذه الأنيميا، ووصف لي أدوية بعد أن أخضعني ساعة كاملة لإعطائي محاليل عن طريق الوريد تعيد لجسمي التوازن. لم أتوقف مع الأيام عن الممارسة لهذه العادة فتهيّج جلدي، ولاحظتُ بعد أشهر انحناء القضيب مع شعور بتمزق في الداخل، وزادت عندي حالة تساقط شعر الرأس، وضعف النظر، وفقدان الوزن، ومع ذلك ظللتُ أهشّم ذكورتي باستمناء بعد آخر.

رحلة صيد

اقترحتُ على ياسر في إجازة نهاية العام بعد أن اجتزنا اختبار الثاني ثانوي أن نذهب إلى أعالي الوادي جهة الجبال الشرقية لنصيد الأرانب والحباري بدلاً من المغامرة في سرقة الدجاج والحملان بعد أن انقشع الغبار الموسمي على المنطقة وبدأت الأمطار تهطل بغزارة فرحب ياسر بالفكرة .

كان علينا أن نستعير بندقية الصيد الصغيرة التي بحوزة والده والمخبأة في مخزن الحبوب، فبدأ ياسر بإقناع والده حتى وافق، حملنا البندقية وأخذنا معها بعض الطلقات وبعض الخبز وعلبة كبريت إضافة إلى مصباحين يدويين وصعدنا الوادي صباحاً باتجاه غابة السدر التي تحاذي سفح الجبل الشاهق، وصلنا بعد العصر وقد أخذ منا جهد السير مأخذه لكن الجو منعش والغيوم قد أظلتنا في معظم النهار، بدأنا نتصيد الطيور الكبيرة كاليمام والقماري التي تنتقل من شجرة سدر إلى أخرى لنعدّ منها عشاءنا فأصبنا ثلاث يمامات، وبعد أن أوشك الظلام أن يحل تعذر علينا صيد المزيد فأشعلنا النار وشويناها وأكلناها مع بعض الخبز، ثم ذهبنا لجدول الماء الذي يجري في شق الوادي من جهة السفح الصخري فشربنا وتأملنا جمال جريان الماء وخريره عندما يهبط من صخرة صغيرة إلى أخرى، وأخذني

منظر أشجار السدر المتراصة وعدد الطيور الصغيرة التي تتنقل بينها محدثة صخباً جميلاً، وتذكرت حصة الرسم عندما طلب منا المعلم رسم مثل هذا المنظر ففشلت، وتمنيت أنّ معي أقلاماً ملونة وورقة لأحاول الرسم مرة أخرى.

كان علينا أن نكمن للأرانب البرية في الليل فهي تحب أن تتناول طعامها من الأعشاب والأوراق في الظلام فتوسدنا جذع سدرة كبيرة لكن الظلام كان مخيفاً لا يبدده إلا نور البرق الذي يلمع في السماء من جهات عدة، أو المصباح اليدوي الذي علينا أن لا نستخدمه إلا في الوقت المناسب لكي لا نخيف الأرانب أو الحيوانات التي ستعبر باتجاه الجدول للشرب، وكان خوفنا من أن ينزل علينا المطر شديداً لأنه لا مكان يؤوينا، والمطر إذا جاء غزيراً قد يحملنا السيل ونموت ما لم نصعد شجرة السدر، وغالباً ما يأتي في هذه الفترة من العام بسيول تشق المزارع وتحمل ما تجد في طريقها من حيوانات، أو بيوت، أو بشر إلى البحر. بعد حين سمعنا حركة قوية وخشخشة قادمة إلينا فأشعلت المصباح عندما اقترب منا على أن يطلق ياسر طلقة يصيده بها فإذا به حيوان أبو شوك قد توقف لينظر إلينا ولعينيه بريق مفزع، ترددنا في التعامل معه، هل نطلق عليه رصاصة ونأكله ؟، أم نتركه يمضي لعل أرنباً يمرّ بعد وقت لأنه بمجرد أن نطلق رصاصة ستبتعد كل الحيوانات ؟.

قرر ياسر أن يهجم على (أبو شوك) بعصا بدلاً من إطلاق رصاصة تحرمنا الأرانب البرية التي تتميز بحذرها الشديد، انطلق ياسر في مطاردته فنفض الحيوان شوكه فأصابت ياسر ثلاث منها،

اثنتان في ساقه والثالثة في جنبه تحت الأضلاع من الجهة اليمنى فبدأ يصيح، لحقت به فوجدت دمه ينزف من ساقيه بعد أن نزع الشوكتين منها حيث يزيد طول الواحدة منها على خمسة عشر سنتميتراً، وبقيت الثالثة مغروزة في جنبه لم يستطع نزعها، حاولت سحبها بهدوء لكن ياسر كان يصيح من الألم، وبعد محاولات عديدة غافلته وسحبتها بسرعة فأطلق ياسر صرخات قوية ملأت الغابة مصحوبة بلعناته لي وهو يبكي من شدة الألم :

- عليك اللعنة هذه فكرتك اللعينة.

- أنت الذي فضّل المطاردة على إطلاق الرصاص.

- اسكتْ، والله لو أنني أستطيع ضربك الآن لضربتك.

ظل ياسر طيلة الليل يلعن الفكرة وصاحبها وأنا صامت تقديراً لألمه، وليس من شيمتي أن أعود إلى المدينة وأتركه رغم أن الفكرة ظلت تراودني كلما بالغ في الشتيمة.

كان علينا أن نسرع للعودة للبحث عن علاج في المستوصف لكن الظلام دامس، والمسافة بعيدة فمشينا حتى فقد ياسر قدرته على الوقوف وسقط على الأرض بعد أن أخذ التعب منه مأخذه ودخل في غيبوبة وهو يئن من الألم حتى ظننته سيموت، عندما بدأت أنوار الصباح بالظهور هالني كمية الدم التي في ثوبه، ولأنني لا أستطيع حمله أطلقت نداءات في الخبت لعل أحداً يسرع لإنقاذنا بعد ليلة تحالف فيها الخوف والجوع والبرد والألم، عدة نداءات أطلقتها لم تعد بأي أمل لقادم أو مستجيب، ورأيت مجموعة من الحمير على

بعد مسافة فخطر في بالي أن أمسك بأحدها وأحمل ياسر عليه إلى المدينة، عندما رأتني الحمير أسير باتجاهها حاولت الفرار فناديتها متوددا (شو، شو، شو) فتوجهتْ بأنظارها نحوي وجمعت لها بعض الحشائش بيدي فأقبلت إحدى الإناث فأمسكت بها وركبت على ظهرها واتجهت بها إلى ياسر لأحمله عليها فلم يستطع التماسك على ظهرها فركبت أنا وجذبته نحوي فركب على بطنه وأنا أمسكه بيد وأمسك البندقية بأخرى، وأوجه الحمارة برجلي حتى وصلت المزارع التي على حدود المدينة فهبّ بعض العمال لمساعدتي واستبدلوا الحمارة بحمار أقوى وأسرع، ونصبوا ظهر ياسر وأنا أمسكه من الخلف حتى وصلنا المستوصف عند الظهيرة، وهناك تلقى علاجاً مناسباً من خلال المحاليل التي تحوي المضادات الحيوية والمسكنات التي وضعت في وريده، وتفحص الطبيب مكان الشوكة التي انغرزت في جنبه من خلال الأشعة على اعتبارها سبب آلامه فاتضح أنها لم تكن عميقة بالقدر الذي يحدث له ضرراً قوياً، لكن سمية الشوكة أحدثت بعض الالتهابات في جنبه، وبعد وصولنا بوقت وجيز توافد أهلنا على المستوصف، ولقينا الكثير من اللوم على ما حدث لنا، وحذرتني أمي من الرحلات البرية مرة أخرى.

لم نتوقف عن الذهاب للخبت بين حين وآخر لممارسة العبث الذي اعتدناه إلا أننا لم نعد للصيد في جهة الجبال، واكتفينا بممارسة بعض السرقات.

كثُرتْ مشاكل ياسر في السنة الثالثة والأخيرة من المرحلة الثانوية، وتوالت شكاوى المعلمين وأولياء أمور الطلاب.. خاصة بعد أن سرق

سيارة المعلم جابر المروي – معلم الرياضيات - وكانت من نوع (هاي لوكس) حين وجدها بعد مغرب أحد الأيام عند مقهى النجوم، ثم أخذني معه فذهبنا للتمرن على القيادة في الخبت حتى آخر الليل، ووجدنا شريط أغان للفنان « محمد عبده «فوضعناه في مكان التشغيل ورفعنا سماعات الصوت إلى آخر درجة، وتركنا صوت الأغنية يتردد في أرجاء الخبت :

«رسولي قوْم بلغ لي إشارهْ

إلى عند المليح الحالي الزينْ

وهتْ لي من مُنى قلبي أمارهْ

لكي نعرفْ بها ما بيننا البينْ

وشاهبلكْ إذا جَوَّبَ بشارهْ

وَقَلَّكَ مَرْحَبَا عَلَى الراس وَالْعَيْنَ

ألا يا ليلاداااانة .. يا اخضر لنا الله»

سرحتُ مع الأغنية وكأنني أخاطب بها ريم، وكلما نظرتُ لياسر وجدته أيضاً ساهماً قد سرح بخياله فقلت في نفسي: ربما هو أيضاً يبعث الكلمات إلى ريم، لكنني لا أستطيع سؤاله.

قبيل الصباح أعدنا السيارة وقد أصابها الكثير من العطب بسبب تلك الأشجار الشوكية التي صدمناها، والحفر التي سقطنا فيها، ونتيجة لتلك الممارسات والشكاوى التي وصلت المدرسة عن ياسر طرده

المدير قبل اختبار نهاية المرحلة الثانوية بأشهر، ونالتني نار صحبته بعقاب بدني وإنذار بالطرد وتعهد بعدم مصاحبته بعد أن بكيتُ وأقسمتُ للمدير مراراً أن لا شأن لي بسرقة السيارة، وأن ياسر من اصطحبني عنوة .

تفرقتْ بنا السبل بعد طرد ياسر من المدرسة حيث عزمتُ على تجنب مقابلته حرصاً على النجاح في المرحلة الثانوية وطمعاً في الجامعة التي شجعني المعلمون عليها، أو الحصول على وظيفة مناسبة أخفف بها عن أمي تعب الحياة ومشقتها، أما ياسر فمضى يبحث عن ذاته، ويرمم انكساراته فالتحق بعد أشهر بدورة في الشرطة ليتخرج ويعمل شرطياً في مدينة مجاورة .

اختطاف

أصبح ياسر بعد شهرين من طرده من الثانوية شرطياً يأتي من المدينة المجاورة ليسلّم على أمه نورة ووالده عوض، ويمضي معهما بعض الوقت،كنت أتحاشى مقابلته لكنني أراقب خروجه في الليل فرأيته يذهب بين ليلة وأخرى لمقابلة ريم بعد أن يدخل أبوها مع أمها في فراش الزوجية ويحيطهما عناق الحب، قررتُ أن أتظاهر بعدم إدراكي لما يقوم به ياسر إلا أنني في الواقع مصِرٌّ على متابعته سراً حتى أتأكد من خبايا الأمر فرأيته يقابلها خلف الباب الخارجي لفِناء بيتها، يقبّلها ويسامرها، عادت بي الذاكرة إلى أيام بداية الثانوية عندما كنت أقرأ في حركات ياسر تململه وقلقه عندما يقرر الذهاب إليها فأنسحب بهدوء ثم أتابعه من بعيد لأشاهده وهو يدور حول بيتها ينتظر أن تطل عليه من نافذة إحدى الغرف، أما وبعد أن تأكد لي ما يمارسه ياسر بعد عودته في الإجازة من عمله في المدينة المجاورة من خلوة بريم فقد فتحتُ في جدار سور بيتها فتحة تسمح لي بمعرفة تفاصيل ما يدور بينهما من حديث واتصال جسدي، وبدا لي أن ريم اطمأنت لكلام ياسر المعسول ووعده بالزواج بها حين بدأ يمرر يديه اليسرى على أردافها ويقبل ثغرها حتى فقدت قدرتها على المقاومة فأخذ يلمس أسفل بطنها، ثم تجرأ ولامسها بقضيبه فاستمرأت ذلك، ولم تمض

أشهر حتى شاع في الحي خبر حبهما، واستغل ياسر ثقة ريم به فواقعها ذات مساء، ورغم إحساسها بألم إيلاجه إلا أنها تحملت من أجل عدم إيقاظ أهلها، وبعد مغادرة ياسر تحسستْ جسدها فوجدت الدم يلون أصابعها فجن جنونها ومع ذلك ظلت صامتة خوفاً من العار والعقاب، لقد غدر بها حبيبها وخطف بكارتها، وأوقعها في شباكه وتحت رحمته، انقطع عنها أياماً فهدها الخوف من أن تكون حاملاً، وبعد مغرب ليلة شتائية طرق ياسر منزل يحيى المقروش طالباً الزواج من ريم لكن والدها طرده لسوء سمعته، كانت ريم تدعو في سرها أن يوافق والدها على هذا الزواج لتخرج من حالة الحزن التي كبلتها.

بلغ الغضب بيحيى المقروش مبلغه نتيجة شعوره بأن ما أقدم عليه ياسر - سيئ السمعة والسلوك - من طلب يد ابنته إهانة له ولعائلته، وظل يردد على مسامع زوجته وابنته:

- كيف يتجرأ هذا السافل على طلب يد ابنتي ؟! دون أن يجد رداً من إحداهما.

لم يقف ياسر عند هذا الحد ويكتفي بالطرد فهو يعلم الأذى الذي ألحقه بريم، وقرر أن لا يتخلى عنها فأضمر اختطافها قسراً، ووقف في سيارة على ناصية الشارع عصر يوم جمعة فرآها خارجة مع أمها في زيارة لأمي فتبعها وعلى مقربة من باب بيتنا ناداها.. يا ريم .. يا ريم..

عندما سمعت صوته توقفت، اقترب منها وهي واقفة وجرها إلى السيارة وهرب بها، صرخت ريم فصرخت أمها، ثم تعالت أصوات

النساء وخرج الرجال لاستقصاء الأمر، وتم إبلاغ الشرطة التي تولت متابعته إلى أن بلغ خارج حدود المنطقة، وفي غفلة قبضوا عليه بمحاصرته في طريق رملي.

بعد التحقيق معهما أصر ياسر على أنه يريد الزواج من ريم لأنه يحبها.

- كيف تحبها وتختطفها؟!

- سبق أن تقدمتُ لطلب يدها من والدها لكنه رفضني.

- لماذا رفضك ؟!.

- لا أعرف الأسباب، لقد بادرني بالرفض وشتمني.

- ولم تجد طريقة للزواج غير الاختطاف؟

- لم أجد، حاولت مع أبي وأمي لمساعدتي فترددا.

-ما فعلته جريمة مخلة بالآداب والأمن، وتعدٍّ على الغير، وأنت رجل أمن تعرف ذلك فجرمك مضاعف.

-أعرف ذلك، لكنني لم أستطع التخلي عنها.

-هل تم الاتفاق معها على هذا الفعل المشين؟

- لا.. أنا من خطط لهذا.

- هل كنت تقابلها قبل ذلك؟.

- نعم.

– ومارست معها الجنس.

– نعم.

– سيكون عقابكما شديداً بعد أن تحال قضيتكما للمحكمة، وخاصة أنت، زنا، واختطاف.

– مهما يكن لن أتخلى عنها.

كانت ريم قد أُرسلت من قبل الشرطة إلى المستوصف لمعرفة وضعها، وبالكشف عليها تبين أنها قد فقدت بكارتها منذ وقت، وأنها مستخدمة لمرات، وهي حامل.

تم التحقيق معها على انفراد فسردت الحكاية كاملة، وتم إحالتها إلى سجن النساء، أما ياسر فتم إيداعه سجن الرجال تحت الحراسة بعد أن تأكدت الشرطة من سرقته للسيارة التي استخدمها في الجريمة وتعرفت على صاحبها وأعادتها له بعد التحقيق معه للتأكد من عدم تعاونه مع ياسر.

عندما علم يحيى المقروش بالخبر أثناء عودته من العمل أصابته ذبحة صدرية، ونقل إلى المستشفى، وبعد أن عادت له قدرته على الحديث توعد ياسر بالقتل، أما صفية فقد انهارت أعصابها، ولم تتوقف دموعها ونساء الحي حولها يهدّين من روعها لكي تتجاوز المحنة.

تدخل كبار رجال الحي لمنع المشكلة من التفاقم وضغطوا على المقروش ليوافق على زواج ابنته من ياسر فأصر على أن يتبرأ منها، فهي حسب تعبيره لم تعد ابنته، لقد ماتت ريم التي رباها ورعاها

وعلمها في نظره، ولا يمكن أن تكون هذه ابنته تلك التي سلمت نفسها وركبت مع مجرم اسمه ياسر .

تولى القاضي أمر تزويج ياسر بعد عقابه في السجن بالجلد، كما تم جلد ريم في سجن النساء، وبعد أن زوجها القاضي على بضعة آلاف من الريالات ودون هدايا من الذهب وملابس الأفراح كما هو المتبع في زواجات المدينة التي تكلف ما يزيد على مئة ألف **ريال** في الغالب بسبب غلاء المهر، وكثرة الهدايا والأفراح، وملابس الزواج، والولائم، وفرق دق الطبول عند الرجال والنساء، أقام عوض الفرحي ونورة مكدشية مناسبة صغيرة لزواج ابنهما من حبيبته حضرها بعض أهل الحي ممن لم يهتموا بخلفيات الأمر وبعض الجنسيات الوافدة، وغاب أكثر أهل الحي ممن أغاظهم تصرف ياسر ولم يرقص الناس العرضة والسيف كعادتهم في مناسبات الزواج حيث رقص الوافدون رقصات مختلفة.

بعد زواج ياسر بأشهر غادر عوض الفرحي حي المدقوق إلى شقة في السليمانية وعمل موظفاً في البلدية، كما غادر يحيى المقروش إلى حي الإذاعة بعد أن باع بيته لأحد الوافدين من اليمن، وتدهورت صحته بعد فترة حين دهمته جلطة دماغية بقي بسببها عدة أشهر في عناية المستشفى، ثم مات مسكوناً بالحزن والغضب دون أن تستطيع ريم زيارته في مرضه، أو رؤيته مسجى في كفنه حيث لم تسمح لها أمها بالدخول إلى البيت رغم كل التوسلات التي أطلقتها ريم، ورقت كل النساء اللاتي حضرن الموقف لحالها إلا أن أمها التي لم تتوقف دموعها منذ ركبت ابنتها ريم سيارة ياسر، وتركتها لفضيحتها أمام

الناس كانت تنفذ وعداً قطعته على نفسها لزوجها بأن لا تشارك ريم في مراسم العزاء، وبقيت صفية وفية لوعدها لزوجها بعدم السماح لريم بدخول بيته الذي طعنت العائلة في شرفها بين أسواره، واكتفت بلقاءات عابرة مع ابنتها في مناسبات عامة، ولم تلبث أن ماتت بعد عامين ونصف من موت زوجها.

باتجاه الأمل

بعد تخرجي من الثانوية كانت عاصفة جريمة اختطاف ريم المزلزلة وزواجها القسري من ياسر قد بلغت بي مبلغاً من الحزن، ولم يعد بمقدوري المكوث في المدينة أكثر فربما قادني بقائي إلى جريمة مع ياسر الصديق العدو، فكرت في الذهاب إلى جامعة جدة للدراسة بعد أن شجعني أحد المعلمين في الثانوية أن أكمل تعليمي الجامعي وزين لي أهمية الحصول على شهادة البكالوريوس التي ستوفر لي فرصة عمل جيد بعد التخرج، فطلبت من أمي السماح لي بالسفر على أن أعود لأخذها معي إلى جدة بعد أن تتحسن ظروفي هناك فوافقت من حيث مبدأ السفر لمواصلة الدراسة فهي تعرف ما آلت إليه حالتي النفسية، ورأت أن سفري سيخفف الكثير من متاعبي الروحية، ودراستي ستحقق لي وظيفة جيدة كأن أكون معلماً، لكنها رفضت فكرة عودتي لأخذها فهي كما قالت: لن تبرح بيتها في حي المدقوق إلا إلى قبرها.

ودعت أمي صباحاً، وحملت حقيبتي الصغيرة التي تحوي ثوباً واحداً وبعض الأوراق المهمة كشهادة ميلادي، وشهادة الثانوية، وشهادة حسن السيرة والسلوك، إلى جانب (تابعيتي) وهي دفتر صغير يثبت هويتي يشمل تاريخ ومكان الميلاد، وكلمة طالب أمام المهنة، وندبة كبيرة في الجبهة أمام عبارة العلامة الفارقة في الصفحة الثالثة،

وفي الصفحة الثانية تقع صورتي الشخصية غير الملونة مدموغة بختم أزرق يحوي معلومات رسمية وذهبت إلى موقف السيارات الجديد في شارع الكورنيش بعد أن ترك الناس الموقف القديم في البَرَحة، فوجدتُ السائقين ينادون بأصوات متداخلة بحثاً عن الركاب وأحدهم يردد:

- جدة يا ولد.. باقي واحد.. جدة .. جدة يا ولد.

حشرتُ نفسي في سيارة البيجو الصفراء بين أجساد ملونة، وروائح نفاذة اختلطت فيها روائح العرق بالكادي فتصدعت الرؤوس .

انطلقتْ بنا السيارة في مسيرة ثمان ساعات متواصلة لا يفصلها إلا رغبة أحدنا في التبول، أو الوقوف، لتناول وجبة سريعة وقصر صلاة الظهر مع العصر، إلا أن أحد الركاب سبب لي الغثيان بتقيئه بين الحين والآخر فاحتجتُ أن أخرج ما في بطني ثلاث مرات بعد أن أطلب من السائق التوقف على جانب الطريق.

عند وصولي إلى جدة أذهلني كبر المدينة وبناياتها العالية وشوارعها الفسيحة وأرصفتها المشجرة والمنارة، وبدتْ لي مدينة مترامية الأطراف لا يمكنني الإحاطة بها كما أحيط بتفاصيل مدينتي الصغيرة برغم تحولاتها الدراماتيكية الأخيرة، ولم أعرف أين أسكن! وكيف أمضي أيامي حتى دلني أحد السكان على مقهى في وسط المدينة، ولم يكن بحوزتي الكثير من الريالات فما أعطتني أمي لا يزيد على مئة وخمسين ريالاً دفعت منها خمسين ريالاً أجرة للسيارة.

وصلت المقهى وتناولت طبق فول مع قرص من التميس ثم نمت، وفي الصباح ركبت سيارة أجرة مصطحباً أوراقي الثبوتية إلى مكتب

التسجيل في الجامعة، وبعد أسبوع من الانتظار وجدت اسمي ضمن قائمة المقبولين.

بدأتِ الدراسة ومنحتني الجامعة فرصة السكن مع بعض الطلاب، وتمر الأيام وما زال الحزن على ريم يعصف بقلبي فأتسلى بالتطواف في أسواق جدة الدولية ومشاهدة الكثير من ماركات الملابس والساعات والأجهزة والهدايا التي لم تصل بعد لمدينتنا الصغيرة في أقصى الجنوب.

في جدة كنت أعتقد أنه أصبح لي جناحان أطير بهما عالياً لكنني وجدتني داخل قفص تحيطه الكثير من القوانين في الجامعة والسكن واشتراطات الدراسة، وواجهتني مشاكل مالية بسبب متطلبات الجامعة والحياة مع زملاء الدراسة الذين يملكون فوائض مالية فيذهبون لشراء الطعام من المطاعم التي تغري بالشراء إلى جانب الملابس والعطور التي يقتنونها فقررت أن أبحث عن عمل ما في أي مكان فلم أجد، خطر في بالي أن أعمل سائقاً لسيارة أجرة، لكني لم أكن قادراً على القيادة بشكل جيد فطلبتُ من زميلي في السكن الجامعي « سعد الحربي» أن يعلمني على القيادة في جدة، وبعد شهر تقدمتُ لمدرسة القيادة للحصول على رخصة، ثم استأجرت سيارة بما جمعته من مكافأتي الجامعية كمقدم، وعزمت أن أستخدمها وقتاً طويلاً وأسدد أجرتها اليومية من فائض ما أجمعه، أخذتُ سيارتي وذهبت إلى موقف السيارات حيث ظننت أني سأجد بسهولة أناساً يطلبون مني إيصالهم إلى أماكن يريدونها لقاء مبالغ جيدة، كانت هذه فكرتي عن المسألة، أو ما اعتقدت أنه سيحدث بمجرد أن أتواجد

هناك لكن الوضع كان مختلفاً، كان كارثياً وشبيهاً بالبحث عن إبرة في كومة قش، فالكثير من سيارات الأجرة في انتظار الزبائن، وسائقوها يتنافسون حتى بلغت حدة التنافس بينهم إلى الهجوم على كل من يعتقدون أنه يريد الركوب، كل سائق يريد اختطافه، كان الزبون غالباً يمنياً متمرساً في التنقل، أو بنغالياً متعباً رثّ الملابس يختار السيارة الأسرع برأيه والأرخص، ولهذا كانت سيارتي تخرج من المنافسة لأنني لم أستطع الدخول مع سائقي الأجرة في تنافس خاصة وأن سياراتهم تحمل عبارة (سيارة أجرة) تدل عليها، وشعرت بهم ينظرون إلي بأعين حاقدة تحمل الكثير من الأسئلة عن وجودي بينهم، ولهم حدس خاص يميزون به الزبون القادم فقد رأيتهم يتسابقون كالذئاب حتى أمسكوا برجل هندي سكب على جسده زيوتاً للزينة تفاعلت مع عرقه فأنتجت رائحة من نوع خاص، وبالصدفة جاء أحد الركاب طالباً إيصاله إلى طرف المدينة دون أن يتسابق عليه السائقون ففرحت وقلت هذا نصيبي فأركبته وبعد مسافة تبين لي أنه معتوه، وليس لديه **ريال** واحد فأوصلته مرغماً لأنه رفض النزول بعد أن طالبته بالأجرة فاعتذر أنه لا يملك نقوداً، وعندما وصلت إلى المكان الذي طلب عند ركوبه رفض النزول مبدياً رغبته في إعادته إلى موقف السيارات حيث حملته فشعرت بغضب شديد لكني لا أستطيع فعل شيء، فأبديت الموافقة وطلبت منه النزول لرؤية ما إذا كان أحد الإطارات قد تسرب منه الهواء فلما نزل ضغطت على دواسة البنزين بكل ما أوتيت من قوة فأحدثت العجلات صريراً هائلاً هز المكان، ثم ذهبت لإعادة السيارة لمكتب التأجير وعدت إلى الجامعة فوجدت زملائي يسألون عن سبب غيابي المتكرر وأخبروني أن دكتور مادة الأحياء قد اختبرهم، حاولت

إقناع الدكتور أياماً باختباري فأصر على حرماني من درجة المادة، تنامى في نفسي اليأس وشعرت بالدنيا تضيق فبحثت عن عمل فلم أجد فكررت استئجار سيارة مرة أخرى، وقلت بدلاً من الذهاب إلى موقف سيارات الأجرة علي أن أتصيدَ زبائني من الشوارع الرئيسية فركب معي أحد مجهولي الهوية من الجنسية الصومالية حيث أخذته على وجه السرعة ظناً مني أنه مقيم حسب النظام بادئ الأمر حتى قطعنا نصف المسافة إلى المكان الذي حدده لنتفاوض على الأجرة واتفقنا على ثلاثين ريالاً هي نصف إيجار السيارة اليومي قبل أن أتورط في دوريات شرطة التي اتضح لاحقاً أنها كانت في الطريق بسبب حادث مروري وليس من أجل البائس الذي التقطته من جانب الطريق، وعندما شعرت بخطر إيقافي ألزمت الراكب بلبس غترتي البيضاء في محاولة لخداع شرطة المرور لكنه لبسها بطريقة تجعل من يراه يعرف أنه متلبس، أوقفني أحد رجال الأمن وطلب الهوية مني ومن الصومالي الذي لا يحمل هوية، وتم أخذي والراكب في سيارة الشرطة وإيداعي السجن بعد ركْن سيارتي في جانب الشارع.

بعد يومين من التحقيق والتأكد من كل أقوالي بأنني طالب في الجامعة، وأنني مارست المهنة طلباً في تحسين ظروفي المالية السيئة مع علمي أن ذلك ممنوع نظاماً أخذوا تعهداً بعدم تكراري لذلك، وتم إطلاقي بعد أن بكيت كثيراً في أعماقي.

ذهبت إلى سيارتي المستأجرة لإعادتها إلى المكتب والتفاوض معه حول ما علي من مبالغ لتسديدها لاحقاً من مكافأة الجامعة لكنني فوجئت بالسيارة بلا إطارات، لقد تمت سرقة الإطارات فدخلت في

دوامة حزن آخر، وطلبت من الشرطة فتح بلاغ وإشعار المكتب الذي طالب بإيداعي السجن حتى أدفع ثمن الإطارات وأجرة الاستخدام .

مرت ثلاثة أسابيع وأنا في السجن، وكلما تم استدعائي من المحقق بكيت فتبرع أحد الضباط بحل القضية مع مكتب السيارات ودياً، وقدم من جيبه مبلغاً للمكتب لم أتبين مقداره ليتنازل عني، وتم إطلاق سراحي.

عدت إلى الجامعة فوجدت اسمي على لوحة الإعلانات مطروداً، ورأيت في أعين الطلاب شفقة لم أرها من قبل وهم يواسونني بإمكانية العودة للدراسة في السنة القادمة، حاولت مع رئاسة القسم ومع عمادة الكلية مراعاة ظروفي خاصة وأن اختبارات نهاية العام على الأبواب فليس لي ذنب كبير فيما حدث لكن دون جدوى، ولم أجد بداً من العودة إلى مدينتي الصغيرة فحملت خيبتي وأحزاني إلى أمي التي رحبت بي بحرارة قلبها الملتاع شوقاً لرؤية ابنها الوحيد، وجمعت أهل الحي على مائدة عشاء بمناسبة عودتي وقدمت لهم خروفاً مع الأرز فأكلوا وشكروا.

لم أشأ أن أفجع أمي بخبر طردي من الجامعة وإن كانت مسحة الحزن بادية على وجهي، والارتباك يحكم كل تصرفاتي، ومع أنها أحست بأمر ما لكنها لم تسألني لأنها تعرف حساسية مشاعري تجاه ظروف فقدان ريم.

بعد أسابيع تدرجتُ في إخبارها فهونتِ الأمر بأن هذه حال الدنيا، وأخبرتني أنها شعرت بانكسار نفسي منذ قدومي عليها، وأنها تخلت

عن فكرة سؤالي حتى أجد نفسي قادراً على إخبارها بما حدث، ومع أنها لم تظهر الحسرة والحزن إلا أنها بكت في أعماقها كثيراً بسبب ما حل بي فقد كانت تنتظر نجاحي لتفرح بي متخرجاً وعريساً في يوم ما، وتتخلص من جهد العمل الذي أرهقها لكنني عدتُ إليها خائباً ذليلاً .

محاولات صغيرة

مرت الأيام والأشهر وليس أمامي سوى النوم والذهاب إلى المقهى والتجوال بلا هدف أو معنى فليس في المدينة الصغيرة ما يمكن عمله فهي تزخر بالعمال والموظفين من كل مكان، بعد مدة قررت أن أخرج من رتابة النوم والمقهى والتسكع في الطرقات فحرثت أرضاً صغيرة تركها لنا والدي، وزرعتها ببعض الخضروات بقصد تسويقها والكسب منها فلم تنجح محاولتي في تسويق ما أنتجته منها فتركتها بعد اليأس ليقضي عليها الجفاف، وبعد أشهر فكرت في أن أكون تاجر أغنام فقد زادت أسعارها، وبلغت أرقاماً فلكية لكن ليس لدي مال لكي أشتري مجموعة منها لتربيتها وبيع سمينها فعرضت على أمي بيع المزرعة الصغيرة التي تركها لنا أبي فوافقتْ بقصد التخفيف عني، فروجتُ لبيعها في المقهى، وعبر بعض مكاتب العقار فاشتراها أحد الجنود الذي عاد للتو من الشمال في إجازة ليبني عليها بيته الجديد لاحقاً.

قبضتُ الثمن بضعة آلاف وذهبت إلى السوق عاقداً العزم في قرارة نفسي على فعل شيء جيد هذه المرة بالنظر إلى أني رجل فشلت كثيراً، كانت الأغنام متشابهة جداً، ألوانها وأحجامها متقاربة لكن الأسعار دائماً ما تكون متفاوتة بدرجة كبيرة بسبب الفرق بين نوعية الأغنام المستوردة والمحلية، حدث لي شيء من الارتباك لكني قلت في نفسي

أنت في البداية وعليك اكتساب الخبرة بالتجربة، ولهذا قمت بشراء مجموعة من الشياه واخترت لها فحلاً مناسباً،كانت نشيطة وخالية من الأمراض، حملتها بسيارة نقل إلى المكان المعد لها، ورعيتها أشهراً أبيع بعض صغارها لأجلب لها علفاً لكنها بدأت تضعف، وانتشر فيها مرض الإسهال فمات بعضها، وعندما أحضرت طبيباً بيطرياً ليتدارك ما بقي وصف لها الأدوية وحقن بعضها لكن أحوالها لم تتحسن، وبدأت البقية تموت، ولم ينقض عام حتى خسرت التجربة .

عدت أجلس في المقهى أفكر ما العمل ؟ لا توجد وظيفة حكومية متاحة، ولا وظيفة خاصة تمكنني من العيش بكرامة! أمي تجوب البيوت على كبر سنها لتعمل وتعود ببقايا طعام وبضعة ريالات بين الحين والآخر وأنا كحمار مخصي مربوط.. ليس لي عمل.

كان شريط ذكرياتي يعيدني إلى الماضي، إلى السرقة، أشعر أحياناً أن يدي تحكّني رغبة في ممارستها من جديد فألعن الشيطان، وجرني الفضول والفراغ إلى السؤال عن ياسر فعلمت من بعض المرتادين للمقهى الذين يعرفونه أنه بعدما فصل من عمله في الشرطة بسبب حادثة الاختطاف، وأنه يعمل سائق أجرة يتنقل بين المدن القريبة، وقد استأجر بيتاً في طرف المدينة من جهة الشرق، وله ابنة وولد من زوجته ريم، ودبّت بينهما العديد من المشاكل بعد أن سُجن عدة مرات بسبب المخدرات.

استعدتُ تلك الأيام التي عشتها مع ياسر، وتلك الحياة المضطربة التي عاشها هو منذ طفولته إلى أن أصبح رجلاً يتقلب بين مطاردة

الرزق بالعمل، أو بالسرقة وترويج المخدرات، وما تسبب فيه سلوكه المضطرب من قضاء بعض عمره وراء قضبان السجن، وهو ما جعلني بعد عودتي من جدة مثخناً بجراح الفشل أن أتجنب مقابلته، وأبتعد عن الأماكن التي أظنه يغشاها خوفاً من المشاكل التي قد يجرها شعوري أنه اختطف ريم مني رغم معرفته حقيقة حبي لها فطالما حدّثته عنها أيام الدراسة المتوسطة والثانوية دون أن يشعرني أنه يحمل تجاهها أي اهتمام لكني بعد أن رأيته يحدثها ويختلي بها وراء باب دارها أدركت أن علاقتي بها مجرد وهم.

حاولت أن أتخلص من الذكريات السوداء المرتبطة بتاريخ علاقتي بياسر والتي تجرني إلى السرقة بممارسة تجربة عمل أخرى أخرج بها من سجن اليأس إلى رحابة الأمل ففكرت في مهنة صيد السمك، تلك المهنة التي فشل فيها أبي وتخلى عنها مبكراً، ذهبت إلى مركز الصيادين الذي أنشأته البلدية حديثاً، سألتهم عن أسعار السمك، وما تحققه المهنة لهم من استقرار مادي فتفاجأت بأنهم جميعهم يذمون المهنة ويصفونها بالخاسرة بسبب غلاء القوارب الحديثة التي تعمل بواسطة موتورات دفع تعمل على البنزين أو الديزل، وتحدثوا عن قلة أعداد السمك بسبب تلوث الشاطئ الذي قتل أعداداً كبيرة من الأسماك، ووجود بواخر كبيرة لشركات صيد عملاقة تستولي على أسراب السمك وسط البحر بواسطة شبكات كبيرة تعمل آلياً، وأكدوا أن بعضهم يعود أحياناً بلا صيد يسد حاجة بيته وأطفاله .

أصبحتِ المهن في مدينتنا بأيدي الوافدين من بناء المنازل والبيع وأعمال الزراعة والحلاقة والتصوير والدهان والرعي إلى ما سواها

من المهن الكبيرة والصغيرة، ولم يبق لنا إلا البحث عن وظيفة حكومية، أو النوم في النهار والتسكع في الليل في الشوارع.

حملت ملفي الأخضر إلى كل الإدارات لطلب الوظيفة إلا أنني لم أوفق في الحصول على عمل، وكلما رأت أمي حالة الحزن التي تعتريني واستني ببعض النقود التي تكسبها من جهدها فأخجل، وبدأ التفكير في الهجرة للبحث عن عمل خارج الوطن يراودني .

هاجس الهجرة

بعد إخفاقاتي المتعددة في الحصول على عمل تحولت أمي من خدمة المنازل إلى تجهيز الزهور العطرية للزواجات والأفراح التي أصبحت تقام في صالات خاصة بدلاً من البيوت فحولتْ فِناء الدار إلى حديقة صغيرة للزهور لتستجيب لطلبات العرائس بعد أن أصبحتْ غير قادرة على طحن الحبوب لجاراتها، أو العمل في تنظيف المنازل، وتطورت مع الأيام إلى مزينة للعرائس تدهن أجسادهن بالزيوت العطرية وتزيل زوائد الشعر، وتقوم بخدمات تجهيز كوشة العروس وتنسيق الطاولات في صالات الأفراح وتزيينها بالأقمشة والورود والحلويات، وأصبح معها عاملات من اليمنيات يساعدنها في مهماتها مقابل أجر، وتحولت أمي إلى امرأة مشهورة في المدينة تتوالى عليها الطلبات، أما أنا فتأكد لي أن لا أمل في عمل في بلدي فبدأت أفكر في الهجرة إلى أي بلد أجنبي ربما استطعت هناك أن أحصل على بعض الأمل. تُرى أي البلدان هي الأنسب لشخص لا تتوفر لديه مقومات النجاح ؟!، ثم إن كل الناس يأتون إلى بلدنا طلباً للرزق ويعيشون، لقد وصل بي التفكير إلى أن أكون أحد الجنود المرتزقة الذين يحاربون في جبهات القتال من أجل الحصول على مال حتى يموتون، ليس لهم هدف سوى بعض مال يغيّر حياتهم، وييسر أمر أسرهم إن بقوا على قيد الحياة بعد الحرب،

وعندما تذكرت صاحبي الصومالي الذي عمل في مقهى النجوم مؤخراً وما يحكيه عن التنظيمات المسلحة في بلده والتي تسطو على كل شيء، وتأخذ كل شيء بالقوة فكّرت في الذهاب إلى الصومال رغم ما وصف صاحبي من فقرها فربما وجدت عملاً مع العصابات المسلحة هناك، أو في إريتريا، أو إثيوبيا، أو اليمن، لكنها قد تكون مغامرة غير محسوبة العواقب فيزداد ندمي.

(ذهب أكثر العمر ويا خوفي على الباقي) رددتها في نفسي مراراً، إلى متى تبقى عاطلاً ومعدماً لا نقود لديك لتعيش أدنى درجات العيش ؟!، تجلس مكتئباً على قارعة الوقت تذرف الدموع وترى بجوارك أحدهم ممن عرفته كاذباً منافقاً يبدو وجيهاً ممتلئاً بالنقود يضع مشلحه الذي ابتاعه بآلاف الريالات على ذراعه ويجلس القرفصاء ليحدثك أن هذه دار ابتلاء، وأن عليك الصبر والتفاؤل ليتركك وقد ظن أنه نجح في إقناعك بأن تكون فرداً صالحاً !، كيف وأنا لم أمسكْ بطرف خيط الأمل ؟!

ومع أنني سارق لكني غير محترف، وأمي لا تقبل السرقة، وليس لدي قدرة ولو ضعيفة على التمثيل لكي أستطيع أن أكون كأحد الأشخاص الذين ركبوا موجة التدين فأطلق لحيتي وأقصر ثوبي وأتظاهر بالتقوى فآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأشارك في جمع التبرعات والصدقات والزكوات التي جعلت أغلب الوعاظ أثرياء.

ذات مساء وأنا مضطجع في المقهى على سرير خشبي متهالك بسبب رحلته الطويلة في مقاومة الشمس والرياح، كان الوقت قد اقترب

من منتصف الليل وأخذني ما يشبه الغفوة حتى سلّم علي شيطان رجيم بطريقة لطيفة ساحباً كرسياً من البلاستيك إلى جواري ليجلس عليه .

- أعلم أنك تعاني من الوحدة وقلة المال.

- بل أنا أعاني من الفقر المدقع.

- لا عليك.. وجدت لك عملاً يوفر لك الصرف لأسابيع، ويمكنك بالدوام أن تصبح غنياً.

- ظننته يسخر .. لا تشغلني بالكذب فلم أعد أتحمل السخرية من أحد.

- أنا لا أكذب.

- ما هو العمل ؟ أسرع به وأنقذني من الضياع فقد بلغتُ حد التفكير في الانتحار .

- لا داعي للتفكير في مثل هذه الأفكار السوداء، الانتحار حيلة العاجز، وخسران الدنيا والآخرة.

- أسرع قل لي : ما هو العمل؟

- تبيع بعض الحبوب لأطفال المدارس لتجد ما تستطيع صرفه على حياتك ! وتنقذ أمك من العمل خادمة في البيوت وصالات الأفراح.

شعرت بالمرارة مرتين، الأولى: بسبب مسألة بيع المخدرات للأطفال، والثانية : عندما تحدث عن عمل أمي، وشعرتُ أنني أبدو في نظره كحمار أجرب منبوذ ، لكنه واصل حديثه ليستميلني:

- أعلم أنك رجل مسلم معتدل وعلى خلق، لكنك فقير فقط، وتريد ما يسد حاجتك.

لعنته، وحاولت أن أضربه لكنه فرّ من أمامي، خرجتُ من المقهى هائماً فأخذتني أقدامي إلى الحي الشرقي، كان الوقت متأخراً جداً، وحين مررت على مقربة من أحد المنازل سمعت صراخاً لامرأة تستغيث فتوقعت أنه بيت ياسر، وبالفعل اتضح من صوته أنه يضرب ريم ففكرت أن أتدخل وأضربه انتقاماً، ثم تراجعت بعد أن قلت لنفسي ما شأني بها، لم يعد أمرها يعنيني وهو زوجها ولا دخل لي بها، وربما جرّ تدخلي إلى الكثير من التأويلات والمشاكل.

بعد أيام سألت أحد جيرانهما عندما وجدته في المقهى عن ما حدث في بيت ياسر فأكد لي أن ما سمعته تلك الليلة هو ما يحدث في أغلب الأوقات، ولا أحد يستطيع أن يتدخل، وأن ريم تَظهر لأهله أحياناً وعلى وجهها كدمات، وفي جسدها رضوض وخدوش وبقايا جروح.

لم أستوعب فكرة أن شخصاً يضرب زوجته بهذا القدر من العنف حتى لو كانت فاجرة، يا لهذه القلوب المحطمة، ما الذي يجري لي ولياسر وريم ؟!

كنت قد توقفت عن مشاركة الناس حضور المناسبات الاجتماعية، وهذا ما كوّن فجوة بيني وبينهم ملأها البعض بالإشاعات: فتارة أجدهم قد وصفوني بالجنون، وتارة يصفون حالتي بمدمن المخدرات أو المروج، بينما أنا شاب فقير يتوقع من مجتمعه دعمه فيفاجأ بأنه يتهمه بكل سوء.

بدأت الرغبة في السرقة تراودني ! لكن ماذا أسرق؟ الشوارع زاخرة بالمحلات التجارية وفيها الكثير، لكن لماذا أسرق ؟! هل من أجل أن أعيش ؟ سأعيش على الفتات ولا ضير، أم لأنقذ أمي من العمل وقد أرهقها التنقل من بيت إلى صالة لتلبي طلب الناس في العمل دون أن أكون قادراً على مساعدتها بشراء سيارة تحملها في تنقلاتها بعد أن اتسعت المدينة وترامت أطرافها ؟! إنها لا تقبل مني شيئاً من المال أقدمه لها حتى تسأل ألف سؤال من أين أتيتُ به ؟! لأنها حريصة على لقمة الحلال، وتريد كما تردد دائماً أن تموت ولحمها نقي من الحرام برغم أنه للدود الذي سيأكله ولا يتركها إلا عظاماً بالية، مع أمي الحق فهي تعرف جيداً أن عذاب أكل الحرام شديد مع أن كل الناس تتسابق عليه.

نزعتُ من رأسي فكرة الهجرة خوفاً على أمي التي سيصدمها الخبر، كما نزعت فكرة العودة للسرقة رغم حكّة اليد التي تهاجمني بين حين وآخر شوقاً لممارستها، وذهبتُ أجوب الشوارع أسأل عن عمل، وطرأ لي أن أعمل في ورشة عمي (حمزاوي)، وأن أقوم بأي شيء يقتل فراغي ويسد حاجتي، وهو صديق أبي الذي لن يرفض لي طلباً فتوجهت صوب الورشة بطرف المدينة من الجهة الشمالية فوجدته هناك في غرفة على هيئة مكتب، فيها طاولة بثلاثة أدراج وكرسي دوار، وفوق الطاولة عدة دفاتر للحسابات مملوءة بالأرقام، وبجوار الطاولة بعض كراسي البلاستيك.

سلمتُ عليه وقبلتُ رأسه، ثم جلست إلى جواره وشرحت له ظروفي ورغبتي في العمل في ورشته فأبدى استغرابه لكنه لم يرفض .. وسألني:

– هل تستطيع العمل في الورشة ؟!

– جربني.. سأكون عند حسن ظنك لأنني لم أجد عملاً في وظائف الدولة بشهادتي.

وافق أن أعمل متعلماً على أيدي العمال السودانيين والفلبينيين حتى أستطيعَ التخصص في عمل أتقنه، وقدمني للمعلم "عمر بانجو" مدير الورشة ليتولى أمري دون أن يحدد لي راتباً معلوماً، واستحيت أنا أن أسأله فأنا سأقبل بأي شيء.

– شكراً يا عمي..

– الشكر لله يا ولدي، أتمنى لك التوفيق.

ورشة العم حمزاوي

لا أعرف كيف عنّ للعم حمزاوي تحويل أرضه الزراعية الواسعة التي تقع في الجهة الشمالية للمدينة إلى ورشة لإصلاح السيارات منذ سنوات، فقد بدأت صغيرة، ثم توسعت بفعل تنامي أعداد السيارات وكثرة الحوادث فعمل على توسيعها بزيادة أبنية وتجهيزات بعد التعويض المالي الذي حصل عليه من الحكومة بعد أخذ جزء من أرضه لصالح الشارع العام، وتكاثرُ الزبائن وأعداد السيارات التي تصل الورشة يومياً، فقرر فتح مكتب لقطع الغيار قريباً من الورشة، ولأن أغلب السيارات التي تصل الورشة محطمة تماماً فأصبح ركام التالف منها يُرى من مسافات بعيدة.

قدمني العم حمزاوي للسوداني عمر بانجو باعتباره مدير الورشة، وكان رجلاً قد تجاوز الستين من العمر، عرفه الناس بصدقه، وحسن أخلاقه في تعامله، عرفتُ عنه الكثير بعد العمل معه فهو يمثل الجالية السودانية في المدينة وما جاورها عند الجهات الحكومية لما له من وجاهة، وكان مثقفاً يقرأ كتباً في مكتبه بالورشة ويستشهد بالأشعار، ويروي الحكايات السودانية الجميلة.

عندما قدمني عمي حمزاوي قائلاً : هذا « وحيد « ابن صديقي،

يريد العمل في الورشة درّبه على العمل المناسب واهتم به حتى يتقنه.. جاء ردّ عمر:

- حاضر يا عمي .

تسلمني عمر بأدب جم ودفع بي إلى ابن جلدته (برهومي) ليعلمني كيفية إعادة الطعجات في السيارات المصدومة، وتلحيم بعض القطع المنفصلة، وصنفرة أبواب وبودي السيارة حتى تصبح جاهزة لدهان معجون التأسيس، ويعمل في الورشة ثلاثة من السودانيين، وفلبينيان ويساعدهم مجموعة من اليمنيين يديرهم جميعاً عمر بانجو، أما السوداني (خير الله) فقد تخصص في طبخ الطعام وتقديم الشاي، ولطبخهِ نكهة عجيبة تجعلنا نلتهم صحن الأرز والدجاج أو اللحم في الظهيرة فلا نبقي منه شيئاً، وللشاي الذي يقدمه لنا سحر عجيب في شحذ هممنا للعمل لا تقل روعته عن روعة الخمرة التي يقطرها برهومي من العنب بغلايته الكهربائية عندما نأوي إلى غرفته في طرف الورشة.

أمضيت في العمل مع برهومي ما يقرب من عامين يعطيني عمر نهاية كل شهر ألفي ريال، فيما كنت أشارك أحياناً «كيفن « الفلبيني في الدهان بعد أن أصبحتُ مجيداً لدهن معجون التأسيس، وبقيت معه عدة أشهر، وأحياناً أتمرن مع « كارلو « على الميكانيكا، لأنتقل إلى العمل معه مع بداية السنة الرابعة مع أنني كنت أقوم ببعض الأدوار المساعدة للبقية كلما طلبوا مني ذلك، كما كنت أفعل مع كارلو قبل أن أنخرط بشكل كلي في صيانة المحركات، أما اليمنيون فدورهم موزع بين إحضار

الطلبات من محلات بيع الغيار، وإحضار السيارات المصدومة بواسطة السطحة المعدة لذلك، إضافة إلى العديد من أعمال التجهيزات وتغيير الزيوت وعجلات السيارات.

طلبت من عمر بانجو إحدى الغرف المعدة لسكن العمال لأوفر على نفسي جهد السير يومياً من بيتنا إلى الورشة حيث لا توجد لدي سيارة فضمني لبرهومي لعدم وجود غرفة مستقلة فأعدّ لي برهومي كرسياً قام بتلحيمه من بقايا حديد السيارات، وأحضرتُ أنا قطعة إسفنج وشرشف من السوق بعد أن فرشت بضعة كراتين من تلك التي تأتي فيها قطع غيار السيارات فوق السرير لتخفف من صلابة الحديد. تشاركت مع برهومي الهموم والأفراح وتقطير خمرة العنب الأسود والأحمر، وحكايات علاقاته بالوافدات من الصومال وإثيوبيا حيث يلتقيهن في الحي الجديد الذي بني من الصفيح، فيقضي وطره من إحداهن ويمنحها نقوداً مقابل ذلك تتدبر بها أمرها حتى تجد عملاً في خدمة إحدى أسر الفلل الحديثة التي تنمو في سباق مع الزمن.

لم تتقبل أمي سكني مع العمال بالترحيب فلديها ريبة من الوافدين، لكن بعد جهد في توضيح أهمية أن أكون قريباً من عملي في الورشة قبلتْ بعد محاولات في إقناعها على أن أستعين لها بعاملة يمنية تعينها في البيت، وفي حمل أغراضها في المناسبات التي تتولى العمل فيها على أن أدفع راتبها .

خلال سنوات عملي في الورشة كانت أمي تصرّ أنْ أذهب بها للحج كلما حلّ موسمه إلا أنني أعتذر بعملي الصعب في الورشة الذي لا

يمنحني الوقت حتى لزيارتها إلا يوم الجمعة من كل أسبوع مع أن السبب الحقيقي عدم رغبتي في السفر، ظلت تؤكد أن لا حاجة لها في نقود مني فما لديها يكفينا معاً فقط علي أن أرافقها كمَحْرم فالنظام لا يجيز لها الحج إلا بمَحْرم، وأنا اليوم محْرمها الوحيد وعلي مساعدتها لتقضي مناسكها على الوجه المطلوب فأعدُها من عام لآخر، كانت رغبتي في أن أسافر بها يوماً ما في سيارتي الخاصة فما زلت أتذكر معاناتي في السفر إلى جدة للدراسة في الجامعة والعودة منها حيث بقيت محشوراً في عرق الرجال وروائحهم الكريهة ساعات طويلة، وكلما طلبت مني أمي الحج تذكرت ذلك الموقف الذي توسلتْ فيه أبي ليحجَ بها أسوة بجاراتها فكان يصدّ توسلاتها مرة بالنهر ومرات بالاعتذار من ضيق ذات اليد، ويعزيها بقوله دائماً إنه هو لم يؤدِ الفريضة .

ظهرت خلافات بين برهومي وكيفن لم أتبين سببها إلا بعد حين فقد كان برهومي يشتم كيفن بأقذع الشتائم دون أن يعرف كيفن ماذا يعني.. خاصة عندما يخاطبه باللهجة السودانية المطعمة بالمحلية :

- يا زول إنت ماشايف إنك صرت صايع وضايع.

- علي الطلاق لوما تعدّل أمورك لألعن سنْسفيلك.

كان « كيفن « مميزاً بإتقانه البديع في إعادة ألوان السيارات إلى طبيعتها فلا يستطيع أحد أن يفرق بين اللون الأصلي للسيارة ولون السمكرة، ومع أنه يسكن مع ابن بلده «كارلو « في غرفة واحدة لكنه كثيراً ما كان ينام مع العمال اليمنيين، ومرات مع برهومي، خاصة

عندما أذهب إلى أمي في نهاية الأسبوع. وتميز كيفن بطول معتدل وجسم نحيف ناعم، وحركة رشيقة، في حديثه رقة لم أسمعها ولو في النساء، يغني دائماً كأنه عندليب حتى وهو يقول مفردات لا أعرف معناها ما جعلني أتقرب منه فتحسسني بشكل مثير فنفرت منه، ولما شعرَ بحرج الموقف اعتذر، لكني أدركت أنه شاذ السلوك.

لا أعرف كيف شاع أمر «كيفن» في المدينة، فقد أصبح له زبائن يأتون لأخذه في المساء جهة الكورنيش لتناول الشواء وبعض الشراب، ومرات يخرجون بعيداً جهة الجبال، أو يسهرون في منزل أحد التجار حتى الصباح ما شكل الكثير من المشاكل بينه وعمر بانجو لعدم قدرته على إنجاز عمله فتراكمت السيارات مما اضطر عمر لتشغيل بعض اليمنيين معنا.

كانت الحياة تسير متسارعة، والتغيرات السلوكية في الشباب تبدو واضحة، فأصبحت الورشة ملتقى لكثير من أشكال الشباب المراهقين، والمتعاطين الذين يظهرون بأشكال غريبة تشبه بعض من يظهر في الفضائيات بجينز مرقع وشعر منكوش وبعض لمسات المكياج.

برهومي العاشق

برهومي رجل طويل القامة، نحيل الجسم، حاضر النكتة،كانت معرفتي له بمثابة جرعة مرح في حياتي، حيث كنا نمضي أياماً في العمل والمسكن . قدِم من السودان قبل سنوات مع عمر بانجو للبحث عن الرزق، وعملا في بداية أيامهما في مزارع حمزاوي في الخبت خارج المدينة، وبعد أن قرر حمزاوي إقامة ورشته في مزرعته بدلاً من زراعة الذرة والدخن أسند إليهما الإشراف على إنشائها، وربما جاءت فكرتها من عمر بانجو بسبب خبرته في إصلاح السيارات.

تزوج عمر بانجو من إحدى السودانيات الوافدات وأنجبت له أولاداً، وأقام في حي المهاجرين، أو حي الصفيح حيث أغلب مساكنه مكونة من الزنك، يناديه كل الناس في هذا الحي بالعم عمر حيث يسهّل لهم ما يستطيع من الخدمات، ويزوره أبناء جلدته من كل نواحي المدينة، ويعتمدون عليه في حل بعض مشاكلهم بالتعاون مع آخرين من أهل المدينة، أو من السودانيين الذين لهم نفوذ في إدارة أعمال التجارة والنقل بعد تطور المدينة وتكاثر سكانها حيث أتى إليها الوافدون والمتسللون من الأفارقة والهنود الذين يتجهون إلى موانئ الحديدة وعدن بزوارق صيد صغيرة ثم يسلكون طرقاً برية طويلة للدخول عبر الحدود الساحلية، ومعهم كثير من اليمنيين وبينهم فتيات

جميلات تم استغلالهن جنسياً ولترويج الخمور والمخدرات من خلال عملهن خادمات في البيوت الغنية، وكان برهومي الذي لم يتزوج يتردد على الحي ليتعرف على بعض نساء الصفيح اللاتي يقدّمن الفتيات القادمات للمتعة مقابل النقود، وكثيراً ما حاول تقديمي لإحداهن لكنني كنت أرفض فمنذ أن تزوجتْ ريم بياسر تحولت المرأة عندي إلى كائن زائد عن الحاجة، بل إنني عند مشاهدة النساء أشعر بحزن في الغالب، وأخرج عن طوري فأشتمُ دون سبب واضح، وكلما شعرت برغبة في إخراج الماء الذي يوتر أعصابي أسرعت إلى الحمام وتخلصت منه.

كان برهومي يضفي على جو العمل والسكن الكثير من المرح بطرفه المضحكة، فقد روى لي مرة : (أن أناساً من قبيلة خرجوا إلى أرضهم، وخرج معهم أعرابي من قبيلة أخرى لأمر آخر فهبّت عليهم في الخبت ريح شديدة يئسوا معها من الحياة إلا أنهم سلِموا فأعتق كل رجل منهم مملوكاً فقال ذلك الأعرابي : اللهم لا مملوك لي أعتقه ولكن امرأتي طالق لوجهك ثلاثاً).

قلت له : الأعرابي سوداني أم من جماعتنا فضحك كثيراً، ورد مازحاً : علي الطلاق من جماعتكم .

ورآني حزيناً ذات مساء فجلس إلى جواري قائلاً: كان فيه راجل يقول: اللهم اغفر لي وحدي، فقال له الجماعة: لو عممت بدعائك فإن الله واسع المغفرة، قال لهم : أكره أن أثقل على ربي.

ضحكنا كثيراً لأنه ظل يؤكد أن الأعرابي لا يكون إلا من عندنا،

وليس في السودان أعراب، وذهبنا نعدّ عَشاءنا تلك الليلة وقد انجلى الهم بفضل مرحه ولطفه.

مضت سنواتي في الورشة جميلة رغم التعب البدني، وكلما رغبتُ في طرفة استزدت برهومي فكان خزينة لا تنضب، أذكر مرة أنه قال: (تذاكرَ قوم قيام الليل وعندهم أعرابي - فقالوا له: أتقوم بالليل؟ قال: أي والله، قالوا : فما تصنع قال: أبول، وأرجع أنام).

ضحكت كثيراً، وقلت له : هذه حالي يا برهومي.. أنا أقوم الليل أبول وأرجع أنام، رد ساخراً : أنا لا أقوم بالمرة .

وبعد أن وقع برهومي في حب « مبروكة » التي زعم أنها بنت بلده التي يعرف أصلها وفصلها وظل يتردد عليها زمناً لكنها رفضت عروضه مراراً بالزواج منها، وحجتها أنها لا تريد الارتباط بأحد فقد تعودت على استقبال من يطرق بابها من راغبي الاستمتاع بالحديث الناعم و مشاهدة فرقتها الراقصة المكونة من فتيات يجدن العزف على آلات متعددة كالعود والناي والكمان، ويضربن على الإيقاعات بشكل يثير مشاعر الرجال الذين لم يتعودوا على مثل ذلك فيدفعون لها المال بسخاء، ومنهم من يطلب تدليك جسده بزيت السمسم ليستمتع بالاسترخاء، وزاد مع الأيام عدد الزائرين لها من الباحثين عن المتعة وتناول صيادية السمك التي تجيد مبروكة طبخها، إلى جانب ما توفره لبعض زبائنها من عرَق برهومي الذي تروجه له بناءً على طلبه، طالما أراد برهومي مبروكة خالصة له لكن زبائنها الذين كانوا أكبر تأثيراً عليها منه كمديري بعض الإدارات الحكومية في المدينة وبعض التجار

جعله لا يذهب بعيداً في الضغط عليها، وإنما قصّر الأمر على التوسل مصراً أنها لا تقدّم نفسها لشيء من الممارسة مع الرجال راداً على استفساري عن مشاعره تجاه امرأة تستقبل الرجال.

– عليك الله ما تقول .. وراح يردد الشعر الذي يعبّر عن حالته ليأخذني إلى حالة الحب التي يعيشها:

(ولما جرحي يجيني منك
يعني مين حيكون دوايا؟
يعني يبقى علاجي انت
وتبقى برضو سبب ازايا
ابقى مخلص ليك واريدك
وانت تمشي تخون وفايا
لو بسامحك ياخ ضميرك
عايز ليكا تحب سوايا..
ابقى انت سعيد وهاااني
شيل وكتر في اسايا...
لو اموت شان تسعد انت
بكتم الاهات جووايا...
مهما كان جرحك بألم
بلقى في فرحك عزايا..)[1]

(١) من قصيدة سودانية شعبية لريم الرفاعي.

غادرت مبروكة حي الصفيح إلى حي النسيم حيث هيأ لها أحدهم منزلاً واسعاً من دور واحد بأسرّة واسعة عليها فرش ناعمة، ومطبخ مجهز بأواني من الإستيل، ودورات مياه، ومكيفات تهوية تنسيها حر الصفيح الحارق، وتلفزيون ملون يتسلى عليه زوارها، وللبيت أبواب متعددة يمكن لها تهريب زبائنها من خلالها إلى داخل الأحياء المجاورة عند مداهمة الشرطة، لم يكن الأمر ساراً لبرهومي فقد كانت زيارتها في حي الصفيح متى ما وجد فرصة أسهل ليرطب جراح حبه بحديثها وإن كان مبتهجاً بسعادتها في بيتها الجديد.

بعد زيارته الأخيرة لها لم يجد مبروكة كما عهدها في ودها له، لقد تغيرت نبرة صوتها وجفت ابتسامتها، ولم تعد تستقبل العرَق الذي صنعه من التمر بتخميره في سطول دفنها في الخبت اللاهب بجوار غرفته لعدة أيام، ثم استخرجها وقد تخمر التمر وله رائحة مزعجة جداً قبل أن يقوم بتصفيته وإضافة نكهة الهيل أو القرفة عليه، ثم وزعه في علب ماء بلاستيكية بعد تفريغها من الماء ليقوم بتسويقه من خلال مبروكة، لكن بعد رفضها استقبال بضاعته قام بتصريفها بطرق مختلفة من خلال بعض الشباب الذين يأتون للورشة من أجل ذلك، وتسبب رفض مبروكة ترويج عرَقه توقفه عن إنتاجه بشكل كبير، واكتفى بما يقدمه لبعض الشباب.

أما مبروكة فقد تسربت عنها أخبار أن أحد تجار المدينة الجدد قد تزوجها سراً بطريقة المسيار، حيث تركها تمارس حياتها الطبيعية، وعندما يريد الاستمتاع بها ينقلها إلى شقة له في عمارة السليمانية.

رحلة التجميع

مع سنوات العمل في الورشة بدأت قدراتي تتطور في الميكانيكا حتى أصبحت أشعر بإعجاب الزبائن الذين يوكلون لي إصلاح سياراتهم بعد أن تراجع حماس « كارلو » فكنت أصْلحُ عدة سيارات في اليوم ولهذا زاد «عمر بانجو » في راتبي ألف ريال شهرياً، ولأن لكل الناس سياراتهم، وأنا لم أستطع بعد شراء سيارة لأن المبلغ السابق الذي كنت أتقاضاه شهرياً لا يزيد عن ألفي ريال في الغالب قبل الزيادة الأخيرة، وهو مبلغ زهيد مقارنة باحتياجاتي من أكل وشرب ومصاريف الكيف الذي تعودتُ تعاطيه مع برهومي وكيفن فقررت أن أعمد إلى تجميع سيارة من بقية الأجزاء الصالحة من تلك السيارات التالفة المحيطة بالورشة.. خاصة وأن أغلب وقتي أقضيه في العمل، ولأنني لم أستطع إراحة أمي فقد ساعدتها على الأقل بتلك العاملة اليمنية التي تحمل لها أشياءها، وترتب لها أعمالها ومواعيدها، وتطبخ لها طعامها على أن أدفع لها سبع مئة ريال شهرياً.

كان عمال الورشة يذهبون إلى غرفهم بعد المغرب، أما أنا فقد تفرغتُ لفكرتي فبدأت بتجميع عشرات القطع (بساتم، وشنابر، وعمود كرنك، وسلندر، ودينمو، وديلكو، وناقل حركة، وكرتير) مع كل ما يلزم هذه القطع من صمامات وأعمدة وأغطية وجلَد، حيث خصصت لها

مكاناً خلف غرفتي التي أقتسمُها مع برهومي، وبدأتُ في التركيب على ضوء مصباح مددته من الغرفة حتى اكتمل المحرك بمساعدة «كارلو » الذي يعرف بخبرته موديلات السيارات التي تركب قطعها مع بعض دون أن تُحدث فروقاً في الشكل، أو اختلالاً في العمل عند التشغيل، وبعد شهر تقريباً من بداية الفكرة قمتُ بتحميل المحرك على عمودين من الحديد الصلب وتثبيته، ومن ثم بدأت رحلة تصنيع الهيكل العام للسيارة مستعيناً بخبرات برهومي وكيفن في تجهيز الهيكل العام حتى اكتملت بعد ستة أشهر تلك السيارة الخاصة بهيكلها المختلف عن كل السيارات الموجودة في المدينة وبدأتُ بقيادتها حول الورشة بعد أن زودتها بالزيوت والماء والمصابيح، وبعد أسبوع بدأتُ أجوب بها شوارع المدينة ليلاً، وكلما مررت على مجموعة من الناس تسابقوا لمشاهدتها، بعد أيام قررتُ قيادتها بشكل طبيعي في النهار عندما أجد وقتاً على أن أساعد أمي مستقبلاً في التنقل وحمل لوازمها التي تحتاجها في عملها بصالات الأفراح في الوقت الذي تريده.

في اليوم الثالث من خروجي بالسيارة أوقفني أحد رجال المرور عند إشارة التقاطع وسط المدينة وطلب مني هويتي فأعطيته، ثم طلب مني رخصة القيادة ووثيقة السيارة وكنتُ قد فقدت رخصتي القديمة التي حصلت عليها أيام دراستي في جدة، وليس لسيارتي التي صنعتها بيدي أوراق ملكيه لعدم وجود جهة يمكنها الترخيص لي، أخبرت الشرطي أن سيارتي هذه من صناعتي فلم يستوعب الأمر، وقرر طلب زملائه الذين أقبلوا في سيارة جيب، وتم أخذي إلى مركز المرور، وهناك تم التحقيق معي :

- من أين لك هذه السيارة ؟

- قمت بتجميعها من بقايا السيارات المركومة بجوار الورشة التي أعمل بها.

- من سمح لك بذلك ؟

- لا أحد.

-لماذا لم تشترِ سيارة من معارض السيارات؟!

- ليس لدي نقود كافية لشراء سيارة، ثم إن لدي رغبة في الابتكار.

- مثل هذا الابتكار فيه خروج على القوانين وخطورة على الأمن.

- أنا لا أعرف القوانين، لكن ليس في تجميعي لسيارتي خطورة على أحد.

قام المحقق من على كرسيه فجأة، وقال بصوت غاضب :

من يصنع سيارة سيصنع أشياء أخرى أكثر خطورة، وطلب مني التوقيع على أقوالي وتغريمي ألف ريال لعدم وجود رخصة قيادة، وإثبات ملكية، وتمت مصادرة السيارة.

شعرت بالألم والحسرة مما حدث، فحاولت مراراً أن يعيدوا لي السيارة لكن دون جدوى، لم أجد في نفسي رغبة للذهاب للعمل في الورشة فبقيت في المنزل رغم محاولات أمي حثي على تجاوز المحنة،

وبعد أسابيع ثلاثة من احتجاز سيارتي تمت مداهمتي بعد المغرب بالعديد من سيارات الشرطة بينما كنت مضطجعاً على سريري في بيتنا بحي المدقوق أقص وألزق في شريط ذكرياتي.

ليلة المداهمة

كانت ليلة القبض علي ليلة مشهودة فقد ملأت سيارات الشرطة الشارع بأشكال مختلفة أغلبها من فئة الجيوب ذات الألوان البيضاء والسوداء والخطوط الخضراء التي تلفها كأحزمة مزينة بشعار الأمن (سيفين ونخلة) على الأبواب، وهناك سيارات صغيرة من ماركات متعددة باللون نفسه والخطوط نفسها وجميعها تطلق صافراتها وفلاشاتها التي ضج بها الحي وكأنها تطارد مجرماً خطيراً من عصابات المافيا الشهيرة، أو من مروجي المخدرات الكبار وليس شخصي الضعيف، اقتحموا منزلي وأخذوني بعنف شديد، وبعثروا البيت عن آخره بحجة التفتيش وأمي تصيح فنكزها أحدهم آمراً لها بالسكوت فسقطت على الأرض ودخلتْ في صمت لم تنطق بعده، وبعد أن وضعوا الكلبشة في يدي، وأدخلوا وجهي في غطاء أسود أستطيع الرؤية من خلاله بصعوبة حملوني داخل قفص صغير في سيارة جيب أسود يلف وسطه لون أبيض وأودعوني السجن .

في غرفة واسعة ليس لها نوافذ سوى فتحة من الجهة الشرقية يدخل منها بصيص نور، وعلى مقربة من الباب لوحة صغيرة كتب فيها عبارة : (عنبر رقم ٧) وفي زواية للغرفة حمّام صغير حيث وجدتني بين مجموعة من الرجال في الدور الثاني تحت الأرض حيث لا يظهر

للناظر من الخارج إلا سطح السجن الذي يقع على مرتفع جيري يطل على المدينة، بعد أن أفقت من الصدمة وجدت معي في الغرفة سبعة سجناء، أغلبهم له سوابق مخدرات، وفيهم ثلاثة من القتلة الذين ظلوا ينتظرون الإعدام صبح كل جمعة منذ سنوات لأنه اليوم الذي يتم فيه الإعدام في وسط المدينة بعد صلاة الجمعة ليشهد التنفيذ خلق كثير فيتعظوا.

كنت أتمنى أن يضعوني في مكان منفرد فأنا لا أطيق النوم مع آخرين، وليس لدي رغبة في الحديث مع أحد، لكن عدم المبالاة بطلبي المتكرر التي أظهرها حراس السجن من الجنود جعلتني أسلّم بالأمر الواقع لعل بقائي لا يزيد على تلك الليلة لأنه لا ذنب لي، وفي الساعة الأولى قدم لي أحد الجنود فراشاً تفوح منه رائحة الكلور المطهر، وقدموا لنا وجبة عشاء مكونة من أطباق فاصوليا مع قرص من الخبر لكل سجين، كنت جائعاً جداً فالتهمت عشائي في دقائق، رأيت أحدهم لم يتناول سوى لقيمات من عشائه فهممت أن آكل ما أبقاه لكنني استحيت، بعد نصف ساعة ملأ الحارس لكل واحد من السجناء كوباً من الشاي، ثم أعطاني كوباً من الزجاج وأخبرني أن علي المحافظة عليه لأشرب فيه في المرات القادمة مثل الآخرين، في الصباح قدموا لكل واحد منا طبق فول ورغيفاً، وبعد فترة أحضر أحدهم الشاي، وتم استدعائي عند العاشرة صباحاً ففرحت ظناً مني أنهم سيفرجون عني فأعود سريعاً لمواساة أمي، وأوضح لها أنني غير مذنب، وأعتذر لها عن ما سببته لها من خوف وحزن، لكن الضابط أبلغني بموتها فنزل علي الخبر كصاعقة، قال : إنها ماتت في تلك الحظة التي سقطتْ فيها

على الأرض وصمتتْ عن الصراخ بسبب سكتة قلبية كما أشار تقرير الطبيب ودفنوها في الصباح، صرخت:

- أريد أن أعرف ما حدث لأمي .

- عليك بالهدوء .. لقد ماتت بعدما سقطتْ على الأرض، وتم حملها إلى مركز الرعاية في الحي واستدعاء الطبيب.

- لماذا لم تخبروني بموتها فوراً لكي أشارك في الصلاة عليها وتشييعها ؟!.

- الوضع لا يسمح بخروجك، لقد انتهى أجلها، وعليك أن تدعو لها بالرحمة، قال عبارته وأشار للحراس بإعادتي إلى الغرفة.

خارت قواي، وتمنيت لو أني أستطيع تهشيم رأس هذا الضابط الذي لا يعرف ماذا ألحق بي من ضرر نفسي، هو لا يعلم ماذا تعني لي أمي، إنها كل ما بقي لي في الحياة وبعد موتها أصبحت مقطوعاً من شجرة، كانت دنياي التي جعلت حياتي بطعم الأمل رغم الفشل المتكرر، علاقتها بالناس واحترامهم لها رغم عملها في خدمتهم جعلتني أشعر بدفء المجتمع مهما كان قاسياً، كنت سأجعلها سيدة كما هو اسم جدها السيد حين أوفر لها كل ما تحتاجه، لم يدر بخلدي أنها ستموت بسببي وتتركني بهذه السرعة، وأنني بموتها أتحول إلى كائن زائد عن حاجة الحياة، لقد ماتت وهي لا تعرف الجريمة التي اقتادوني بسببها.

وفي الواحدة ظهراً طرق علينا الحارس باب الغرفة وقدم لكل واحد منا صحناً فيه بعض الأرز والدجاج المحمر فلم آكل منه شيئاً،

لكن أحدهم التهمه بسرعة فائقة لفتت انتباه الجميع، أصابني غيظ شديد عليه بينما كانت نظرات البقية تسألني عن شيء ما فتجاهلت، وبعد ساعة تقريباً أدخل لنا الحارس إبريقاً مملوءاً بالشاي فصب كل واحد منهم في كأسه بالقدر الذي يريد، أما أنا فلم أمد له بكأسي.

كانت الأسئلة التي تنهمر علي من السجناء خلال المدة التي قضيتها عديدة أجيبُ على بعضها وأتجاهل أخرى

- ما اسمك ؟

- كم عمرك ؟

- ماذا فعلت حتى أحضروك للسجن ؟

لم يصدّق أحد منهم أن جريمتي تجميع سيارة من بقايا الورشة التي عملت بها وقيادتها، وذهب كل واحد منهم يتوقع جريمتي بناء على ما يستنبطه هو من هيئتي .

(مروج مخدرات، سارق، سياسي، قاتل، إرهابي) وظل كل واحد منهم يدافع عن التهمة التي ألبسني ويبرر بناءً على قراءته لملامحي .

مرت الأيام وأنا أستبشر مع كل طرقة للحراس بأن يدعوني للتحقيق معي بالتفصيل لأفرغ ما في نفسي للمحقق، وأتحدث باستفاضة عن كل ما أشعر به من حرقة وشعور بالظلم، وأستحثه على الخروج فلا ذنب لي غير تلك السيارة التي صادروها وانتهى أمرها إلى المجهول، وفي كل مرة يأتي الطارق بطعام، أو شراب، وكلما سألت أحدهم عن أمري أظهر عدم المعرفة.

بعد ثلاثة أشهر شعرت أن حالتي الصحية تتدهور فمرة يعصف بي إسهال شديد فأتحرّج من تلك الأصوات التي ترتفع كلما ذهبت إلى الحمام فعادت لي فكرة المطالبة بالحبس الانفرادي فلم يستجب لي السجانون، وبعد تجاوز محنة الإسهال شعرت بآلام حادة في كتفي الأيسر فبكيت كثيراً، وأخذ (محسن) المتهم بترويج المخدرات يتقرب مني كثيراً ويحاول تهوين الأمر، ويدلك كتفي معللاً ما أصابني بكثرة النوم فكثيراً ما كنت أدخل في الغطاء تحاشياً للحديث الممل الذي يتبادله السجناء، أو أشتغل بتلاوة القرآن ومحاولة حفظ ما تيسر من آياته الكريمة ليخفف عني شيئاً من الشعور بالضيق والملل.

مع مرور الوقت لم يعد أحدنا يتحرّج من شيء خاصة تلك الأصوات التي تصدر من الحمام فتملأ أرجاء الغرفة، وكنت أنا الوحيد الذي يرجو الموت بينما كان كل السجناء يتمنون الحياة، حتى القتلة يأملون في العفو ليعودوا إلى الحياة، وفي كل مساء جمعة يأتي الحارس لينبه على أصحاب الأحكام بالإعدام بالتطهر والاستعداد للقصاص فكان الثلاثة يتجرعون الموت بعدد أيام الجمع على مرّ السنوات التي قضوها في السجن .

لم يتم تنفيذ الإعدام إلا بجابر خلال العام الذي قضيته معهم بعد أن كبر ورثة الدم الصغار وأصروا على القصاص، ولازالت كلمات وداعه ترن في أذني عندما قبّلنا واحداً واحداً عند العاشرة صباح يوم الجمعة تلك، وهمس في أذني:

- انتبه لنفسك من الأشرار فما زلت صغيراً والمستقبل أمامك .

كان جابر هادئاً جميل الملامح وقوراً، لا أعرف كيف ارتكب جريمة القتل في ابن عمه الذي نازعه بعض الأملاك، أما محمد كرشم، وعمر زيلع فلا أعلم أسباب تأخر قصاصهما.

كلما تذكرت موت أمي تمنيت الموت، وعندما انتحبت عليها كان محسن يقدم لي سيجارة زاعماً أنها تنسيني همي وتطرد أحزاني، لا أعلم بالضبط هل كنت أنسى أحزاني أم لا، كل ما أعرفه أنني أشعر بخدر في جسدي، وأحياناً أشعر أنني انخرطت في الحديث مع السجناء بما هب ودب، بعد أشهر علمت من (محمد كرشم) أن سجائر محسن من الحشيش .

- كيف يدخل إليه ؟!

- لا أعلم !

بدأت في مراقبته من تحت لحاف فألحظه عندما ينام الجميع وأنا أرمقه بعين ثاقبة من تحت الغطاء وهو يقف أمام فتحة التهوية الموجودة في أعلى الجدار من الشرق قبيل الصبح منتظراً شيئاً ما فتُرمى له من خلالها قطعة في حجم علبة الكبريت ليقوم بتفتيتها إلى قطع صغيرة ويلفها في ورق صغير فتبدو كالسجائر، ويبدو أن من يرميها متمرس جداً لأنها تعبر الفتحة الصغيرة دون أن تحدث صوتاً، وبدا لي ونحن في تلك الغرفة تحت الأرض أن حول غرف السجن مساحة تسمح لأحدهم بالمرور من الخارج، وتهيأ لي مرات أنني أسمع حركة سيارات حولنا مع أن دخولنا إلى المكان كان نزولاً.

لم يزرني أحد في السجن مع أن كل أهل حي المدقوق شهدوا

أخذي للسجن، وشيعوا جنازة أمي، حتى أبناء خالي لم يأت أحد منهم لتعزيتي، لم أكن أرغب في رؤية أحد في حقيقة الأمر غير أني كنت أريد معرفة تفاصيل موت أمي من أحدهم، وكدت أن أموت حسرة عليها لأن موتها كان حسرة علي، وهي لا تعلم أن جرمي بسيط جداً في حساباتي حتى وإن رأته الشرطة مخلاً بأمن الوطن، كل تلك الفترة التي مرت بي في السجن لم أتلق توبيخاً أوعقاباً غير العذاب النفسي الذي عصف بروحي وأحسست بضيق كاد يقتلني مرات ومرات، وكلما سألت حراسي عن المدة التي سأبقاها في السجن يجيبون بعدم العلم .

مرت أشهر وبضعة أسابيع دون أن أخضع لتحقيق سوى ما قاله لي أحد الضباط بعد ثلاثة أيام من دخولي: إن البلد مليئة بالسيارات ولا حاجة لي إلى اختراع سيارة وقيادتها أمام الناس متباهياً دون ترخيص، وأن مثل ذلك يعاقب عليه القانون، كان حديثه حديث المحقق نفسه الذي استدعاني عندما تم إيقافي في الشارع، حاولت أن أوضح له أنها مجرد تجميع لأنني لا أستطيع شراء سيارة من دخلي الزهيد الذي أحصل عليه من عملي في الورشة فلم يتفهم تبريري وكأن الأمر قد قضي.

مرت الأشهر تباعاً، وبدأ جسمي يتخفف من اللحم الزائد رغم أنني ألتهم الطعام الذي أصبح روتينياً لم يتغير - الفول في الفطور والدجاج مع الأرز في الغداء والباميا أو الفصوليا في العشاء، مرات عديدة أتمنى أن أعد لي كوباً من الشاي لكنه لا يمكنني فعل ذلك، والكوب الذي يقدمونه لا يأتي إلا بعد الطعام حسب نظام السجن، أصابني الأرق عندما قال لي السجناء: مرّ على وجودك معنا سبعة

أشهر، كان محسن قد قضى خمس سنوات، ومحمد كرشم سبع سنوات، وجابر ثمان سنوات، وعمر زيلع جاوز العشر سنوات ولذلك فقد جزءاً من ذاكرته، وبدا مهلوساً يسمعنا ما لا يعقل مثل قوله: القيامة ستقوم غداً، سيحل بنا العذاب غداً أو بعد غد.

وكل البقية مرت بهم سنوات عديدة، أخذ النوم يداهمني في الصباح حتى الظهر وهي الفترة التي أحلم فيها باستجوابي لكن الأرق الليلي لا يسمح لي بأن أنام في المساء لأنه يستدعي كل الذكريات القديمة التي تتدفق كشلال بعضها يدعوني للسخرية من نفسي، وأخرى تجعلني أشعر بمرارة الحياة، كانت أمي تحضر في كل ليلة بذكرى قهوتها الصباحية ودعائها الحزين، ونصائحها العديدة، وحرصها المتناهي على تزويجي.

تحضر الكثير من الذكريات مع زملاء الدراسة، وحب ريم، وملاعب الصبا، وأفراح الحي، والعنف الذي تعرضت له مراراً من علي خمج ورفاقه، تحوّل ليل السجن إلى كوابيس تعمق الشعور باليأس، وتزيد الرغبة في الزهد من الحياة، فلا أمل في عيش كريم بعد خروجي من السجن، وستزيد وحشتي من الناس، وكلما زاد حضور الماضي في ذاكرتي زاد الخوف من المستقبل .

- لماذا أشعر دائما أنني مربوط بحياتي السابقة ؟!، كانت أحلامي في الصغر خصبة ثم تلاشت مع الأيام كأنها سراب، ولم يعد لي من حلم سوى أن أخرج من السجن.

كلما داهمتني الذكريات في ليل الهم الطويل أفر إلى قراءة القرآن

فيصيبني ما يشبه الغثيان، ليس لي رغبة في تأمل الآيات ولا التغني بها فأعيد المصحف فوق الرف الخشبي المعد لذلك، وأسحب نفساً عميقاً وأتأوه بصوت مرتفع يقض مضجع النائمين حولي، أحدهم يشتمني، وآخر يدعو بالفرج، أحدق في الجدران الأربعة هذه الأشهر، وأستلقي على ظهري كلما أصابني انهيار روحي أقرأ سقف الغرفة فتتسابق الذكريات، أشعر أنني لست أنا، وأتساءل مرات عديدة من أكون إذا كنت لست أنا ؟! أحياناً أشعر أنني أطرح على نفسي أسئلة ساذجة لا معنى لها غير إشغال نفسي:

- كيف ستكون حالتي لو أن ريم وافقت على الزواج مني ؟ وكم سيكون لنا من أبناء.

- لو أنني تخرجت من الجامعة وعملت معلماً كان دخلي جيداً، وكنت بنيت بيتاً حديثاً واشتريت سيارة فخمة بالكاش دون حاجة إلى تجميع وتركيب أوصلني للسجن.

- متى أتوقف عن نبش حياتي ؟!، وما الذي يربطني بالحياة أصلاً ؟!، علي أن أعيش كيفما اتفق فأنا الآن على مشارف الأربعين، ولن أنجز شيئاً يذكر في القادم لأن فشل أربعين سنة في الماضي تقود إلى فشل أكثر ألماً، وليس لي ارتباط بالعالم حولي سوى أنني أشبههم في الخلقة، ربما لي عقل حيوان مع أنني أمشي على رجلين، أو عقل طائر صغير لم يؤهلني لتجاوز الكثير من العقبات.

بعد أشهر شعرت أن الذكريات تمر دون ألم، أو تأمل، بدأت أسخر منها، لأن محسن بدأ يحيطني علماً بخططه بعد الخروج من السجن.

- لم أرَ رجلاً في مثل عزيمتك يا محسن، مازلتَ تنظر للمستقبل وقد أمضيت في السجن إلى الآن ست سنوات وأشهر، وأنا أبكي من عدة أشهر !

ضحك فبدا فمه بدون أضراس، لم يبق (الكيف) تدخين الحشيش له سوى مجموعة من أسنان المقدمة المغروسة في لثة ملونة بالسواد، وجسد ممتلئ ووجه واسع بعينين حادتين.

- الحياة كفاح، سقوط ونهوض، ولا بد أن نعيشها ما دمنا فيها بحلوها ومرها، سنغادر هذا المكان ذات يوم، وسنعود للبحث عن الرزق، وختم حديثه بهمسة قريبة من أذني اليمنى: سنعمل سوياً في القادم من الأيام.

أخافني وعده هذا، جعلني أرتبك فلم أعقب بكلمة، فتركني وأخذ يحدث البقية بأحاديث هامشية .

بعد الإفراج

في الليلة التي سبقت الإفراج عني شعرت باضطراب القلب وتدافع دقات نبضه فشعرت بضيق خانق، ووحشة فصرت أتقلّب على كل جنب ممدداً على فراشي وصوت رعد بعيد يدوي، ثم أنهض وأدوّر حول نفسي ثم أعود للتمدد، عصف بي الحنين في هذه الساعة إلى رؤية السحاب والتمرغ تحت المطر، كلما سمعت صوت الرعد وأنا في غرفة السجن المغلقة أشعر بخنجر الحزن تتوغل في أحشائي، ربما لو علموا أنني أسمع الرعد لبنوا الجدران من عازل الصوت لكي لا يتسرب إليّ الحنين، صوت الرعد يضرب أذني فأشتاق لرؤية المطر وهو يداعب أغصان شجرة السدر المنتصبة في فِناء البيت منذ عقود، أتذكر ضحكاتنا « ريم، وياسر، وأنا ونحن نركض بين المطر عراة إلا من سراويل صغيرة لا تغطي سوى بعض أشيائنا، نتعفر بالتراب المبلل بالمطر ثم نغتسل بدش السماء حتى نرتجف وتصطك ركبنا وتقلقل أسناننا.

لا أعلم الآن هل قتلوا ياسر أم إنه ما زال في زنزانة تشبه زنزانتي، ترى هل يسمع الرعد الآن ؟، ويشتاق رؤية المطر والسحاب كما أشتاق؟ وريم أين هي؟ وما حالها ؟ هل لا تزال تعاني الألم من ضرب ياسر؟!، لاشك هي ترى المطر وتشاهد السحاب لأنها خارج الزنازين، فهل

هي تشتاق للركض بين المطر وتعفير جسدها بالرمل لتخيفنا مثلما كنا نفعل صغاراً؟ هل تفكر بي؟ أو على الأقل تذكرني كما أذكرها ؟ لكن ما فائدة أن تذكرني وهي في هذه السن والظروف، وقد ضيعتني حبيباً وضعتُ بعدها إلى الأبد ؟! سمعتُ صوت أذان الصبح لأدخل بعد الصلاة في نومة مرتبكة.

عند التاسعة صباحاً سمعت من ينادي على اسمي وأنا في الفراش فوثبت، خالجني شعور بأنه كابوس لكن الحارس اقترب وطلب مني الخروج إلى الضابط وليد الذي استدعاني وطلب مني التوقيع على تعهد بالمواطنة الصالحة والولاء المطلق للحكومة، وعدم ممارسة ما يضر بمصلحة الوطن والمجتمع فوقعت وخرجت لأشعر بشيء من لذة الحرية رغم حرارة الجو الصيفي والغبار الخانق، وإحساسي بقيد يكبل خطواتي .

بعد ظهر يوم السبت ٢٠٠١م أفرجوا عني فخرجت إلى الشارع العام ورفعت يدي في إشارة لسيارة أجرة تقلني، عندما وصلت منزلي في حي المدقوق نقدته عشرة ريالات من المبلغ الذي سلمني الضابط قائلاً: خذ هذا المبلغ من بقية مصروفك، كان بضع مئات، وعندما دخلت البيت الذي تركته أمي إلى قبرها بعد تلك الليلة المشؤومة، بدا لي حزيناً ومتسخاً، قد صدِئ لون جدرانه التي كانت تتعهدها بتجديد الطلاء، وملأت زواياه بيوت عناكب، حتى أنواره بدت قديمة وبعضها لا يعمل، تفوح رائحة عفن في أرجائه لم أتبين سببها، كل شيء في البيت بعد خروجي يذكرني بأمي، أسمع صوتها في كل زاوية، وأشم رائحتها في ملابسها الداكنة التي توزعت في أدراج دولابها وعلى بعضها ثقوب

من أثر قرض الفئران التي سكنت البيت في غيابنا، وتظهر على أحد الملابس صبغات ملونة ذكرتني بعملها مزينة للعرائس، وفوقه وضعت إحدى إناث الفئران صغارها، في الفِناء ماتت الزهور التي فقدت تعهدها لها بالسقي والتشذيب، لا أدري كيف تجرأت، على فتح باب البيت وهي ليست في استقبالي، لم أقو على النوم والبيت خال منها، من همسها الدافئ، ومن رائحة بخورها الذي ينعش رئتي ويعطر أنفاسي كلما عدتُ إليها بعد غياب، ومع عدم قدرتي على النوم شعرت برغبتي في إعادة الحياة لي وللبيت فقررت أن أعد كوباً من الشاي، أشعلت الغاز ولحسن الحظ اشتعل، فأخذني الاستغراب!:كيف بقي هذه المدة دون أن تمتد إليه أيدي اللصوص ؟!، لابد أن الشفقة على ما حل بنا جعلتهم يصرفون النظر عن العبث بما فيه، ملأتُ الإبريق بدلاً من كوب واحد، وجدت السكر قد تجمد وورق الشاي له عفن محبب، وضعت الإبريق على الأرض وتوسدت وسادتين لأحتسي الشاي، شعرت بليل امرئ القيس يرخي سدوله علي كموج البحر، والريح تعوي في الخارج كذئب جائع، صعدت إلى السطح لأرى نجوم السماء فقد مرّ علي أكثر من عام لم أرَ فيها السماء ليلاً، بقيت وقتاً أرقب النجوم مشدوداً إلى جمالها حين بدت السماء صافية وتدفقت في ذاكرتي ينابيع ذكريات الطفولة عندما كنت أنام مع أمي على السطح وأظل أتصفح السماء وأقرأ النجوم حتى يختطفني النوم، كم هي موحشة الحياة بدونك يا أمي.

بعد أيام ذهبتُ إلى المقبرة وبالصدفة قابلت أحد حفاري القبور

فسألته عن قبر أمي فلم يهتد إليه إلا بعد جهد، صليتُ عليها، ودعوت لها ولأهل المقبرة جميعاً بالمغفرة والرحمة.

أمضيت سنوات رتيبة أقرأ بعض الكتب التي كنتُ جمعتها أيام الجامعة للتسلية عندما كنت أمر بالمكتبات في جدة فيغريني كتاب فأشتريه رغم ضيق ذات اليد، وبعضها أهدانيها بعض الزملاء.

لا يعكر سكون حياتي إلا حاجتي إلى النقود لأشتري لي طعاماً فليس لدي دخل مادي الآن، فذهبت إلى الجمعية التعاونية بعد أن سمعت عنها مع الناس قبل دخولي السجن لأطلب منها كمية من الأرز والسكر والزيت، وحصلت على بعض النقود من محسنين مدوا بها لي فاشتريت بعض الأشياء البسيطة كأدوات الحلاقة والشامبو، ودخلت في عزلتي أحتمي بالقراءة وبالصمت الذي يمنع عني نفاق المجتمع، تلك العزلة التي أثارت آلاف الأسئلة عند سكان حي المدقوق من الوافدين الجدد من اليمن والهند، ولأن الأسئلة لا تهدأ إلا بإجابات فقد كثرت عن حالتي الإجابات عندهم: فأنا مخبول، ومعتوه، وفاسد، ومنحرف، وكل ما يمكن تصوره، أو ما لا يمكن عن رجل خرج من السجن ولازم بيته دون عمل، وبقيت أتقلب في الفراغ سوى أن أعد طعامي متى شعرت بالجوع، أو أقرأ كتاباً، أو أنام، وبقي المجتمع المحيط بي متفرغاً لإطلاق التهم.

بدأت أعيش كوابيس تتكرر كل ليلة ترهبني لدرجة أن صراخي يوقظ الجيران أحياناً، أو هكذا يبدو لي عندما أسمع من يقول ماذا جرى لك؟، الكوابيس أرى من خلالها كل شيء، أرى عوالم مخفية

أتلمس حيطاناً من ذهب خالص، وأفتح أبواباً من ذهب، وأشرب في كؤوس من ذهب، ومرة جاء إلى الباب حصان من ذهب فلما فتحت له أخذ لونه يتغير إلى البرونز، وكلما حاولت الركوب عليه هاجمتني شهب من نار، وأخذتْ بين الحين والآخر تهيمن علي مقولات قرأتها أو سمعتها لا أدري : (البشر كاذبون..كل واحد منهم يزعم أن بلده أم الكون، أم الدنيا، الأرض المقدسة)، ودون خجل يتعصب الإنسان لكل عادات قومه، ويصر أنها أجمل العادات وما سواها سيئ، هل هو غباء أم عاطفة جياشة لا تؤمن بالحقائق ؟!، في رأيي إن لكل مكان في الأرض ما يميزه عن غيره دون حاجة لمصادرة ما لدى الآخرين من جمال وتنوع.

عندما أذهب لصلاة الجمعة أجد أحياناً يدي تمتد لصحيفة فأشتريها، وعند تصفّحها أتذكر أن معلم العربي في الثانوية رشحني لأن أكون محرراً لصحيفة جماعة اللغة العربية، وتوقع أن أكون مراسلاً مميزاً لإحدى الصحف في العاصمة، أو كاتباً مميزاً لكني بعد أن قرأت مقولة لبورخيس يرى فيها: (إن الصحافة مهنة مبتذلة يمارسها كل النزقين الذين يكتبون للنسيان من حيث ظنوا أنهم يكتبون للزمن والذكرى) وجدتني أميل لرأيه مع أنه لم يطرأ في بالي أن أكون صحفياً يوماً ما، كان أملي أن أحقق نجاحاً في الدراسة الجامعية في تخصص الأحياء الذي سجلت فيه في جدة لأعود معلماً في مدينتي هذه على أمل أن أمارس هواية الابتكار في ورشة صغيرة أشبع فيها تلك الرغبة التي تشاغبني بين حين وآخر.

بقايا حي المدقوق

في الفترة بين دراستي المتوسطة وعودتي من مدينة جدة بعد أن ذهبت للدراسة في الجامعة وما تلا ذلك من سنوات تنامت المدينة الساحلية الصغيرة ذات الأحياء الثلاثة فأصبحت أحياء عديدة بعد أن رُدمت المزارع المجاورة لها، وشقت البلدية وسطها الشوارع، ونصبت أعمدة الكهرباء والهاتف، وتوالدت أحياء جديدة بأسماء غريبة منها ما سمي باسم صاحب العمارة ذات الطوابق السبعة (السليمانية)، ومنها ما جاء اسمه من أحياء مدن أخرى اشتهرت عند الناس بحكم التواصل والسفر والإعلام كحي المعذر، والنسيم، وحي الإذاعة الذي سمي بسبب وجود برج تقوية وسط الحي شُيد من الحديد بارتفاع أكثر من مئتي متر، وزُوِّد في أعلاه بمقويات إرسال لتقوية البث الإذاعي .

ظلت المدينة تركض متمددة في كل اتجاه حتى الشاطئ البحري تم ردمه، وتسميته بالكورنيش، وتزيينه برصيف جميل تتخلله مظلات (الفيبر قلاص) وأكشاك وجبات سريعة، ودون أن نشعر أفقنا على جيران غير الجيران قدموا من الجبال المحيطة والمدن البعيدة، وأغلبهم بنوا منازلهم الحديثة على امتداد الشوارع الجديدة التي أخذت أسماء غريبة كشارع « العز بن عبد القيوم «، وشارع « العاصفة «،وشارع « الملك عبد العزيز «، ومنهم من اختط أرضاً في المزارع بعد

شرائها وبنى فيها فيلا من دورين أو ثلاثة، وحرص ملاك العمائر المبنية على الشارع الرئيس على فتح محلات تجارية للملابس والعطور وأدوات المنازل والزينة، وأشياء كثيرة من لوازم المدن العصرية، واستجلبوا للعمل بها عمالاً من الهند والبنغال واليمن، فأصبحوا هم من يدير الحركة التجارية في المدينة وليس أهلها،كما وصل مهاجرون أتوا من بلدان عديدة بأعداد كبيرة فابتنوا أحياء من الصفيح على أطراف المدينة المتنامية، وبعضهم مارس العمل في الورش والبيوت وبقايا المزارع.

أصبح حينا (المدقوق) قديماً مع مرور الأيام، وتحولت أبنيته الطينية والحجرية إلى منازل للقادمين من البر والبحر من المهاجرين، ولم تعد جدرانه وسقوفه في الغالب قادرة على الصمود أمام سطوة الإهمال فتساقط بعضها، ولم يتماسك إلا تلك البيوت المبنية بالحجر الجيري، أو تلك التي سكنها الوافدون ومنحوها بعض العناية، لكنها في العموم تضاءلت أمام زحف البيوت المسلحة الحديثة، وبعض أهل المدقوق ظلوا على تواصل حميم مع منازلهم القديمة زمناً مدفوعين بالذكريات الجميلة إلى أن جفت مشاعرهم تجاهها بسبب التغيرات السريعة فتخلوا تدريجياً عن زيارتها،كما تخلوا عن كل تقاليد الأفراح في الزواج والختان والاحتفاء بالمواليد التي كانت تقام في البيوت، ويجتمع لها أغلب سكان الأحياء وحلت محلها أساليب مدنية تنقصها الألفة كصالات الأفراح التي تخصص مكاناً للرجال وآخر للنساء بسبب تعدد المشارب والسلوكيات، واختفت النساء اللاتي كن يعملن في السوق المحلي في بيع الخضروات والبيض والسمن والورد تدريجياً،

وأصبح خروجهن مقيداً ونادراً، وإذا تم فبغطاء أسود لكامل الجسد، كما اختفى سوق الاثنين الذي كانت تختلط فيه أصوات نساء القرية مع رجالها مثلما اختفت مشاغبات علي حمدي، وقاسم عدوان في سوق السمك، أو ظافر حسن، وجبران مروعي على أطراف المزارع.

ومع التحول المتسارع ترك العم حمزاوي و»جبران مروعي، وقاسم عدوان، وظافر حسن» وغيرهم من الملاك مزارعهم لمستأجرين جدد أقاموا عليها أبنية من الزنك والحديد، وأحالوها إلى ورش للحديد والألمنيوم، وورش صيانة للسيارات، وبجوارها بنوا غرفاً صغيرة متعددة من البلوك للعمال، وبعض الملاك الجدد بنوا منازل من دورين أو ثلاثة بالحديد والإسمنت في بعض المزارع المجاورة للأحياء الجديدة .

طال التغيير كل شيء ما عدا بعض الأماكن التي حفظت تاريخ المدينة كمقهى النجوم، وبقالة العم حجوري، وبعض البيوت في الأحياء الثلاثة التي لم تطلها يد الهدم والإزالة فبقيت شاهد تاريخ، أما الأحياء الجديدة فقد تعددت في شوارعها الصيدليات، وأماكن الملابس الجاهزة المستوردة من تركيا والهند وإندونيسيا، ومحلات العطور الرخيصة المغشوشة، والساعات المقلدة لماركات عالمية، والزهور البلاستيكية، وأقفاص الطيور الملونة كالباجي، والفِشر، وطيور الحب، والببغاء وأنواع كثيرة من الطيور المستوردة من أصقاع الدنيا والتي كانت تتفوق في الجمال على الطيور المحلية ذوات الألوان البنية أو السوداء التي كنا نطاردها في الخبت، ونفرح بتربيتها عندما تنجو من عبث ياسر، كما تعددت محلات الألعاب، والدمى، والهدايا، والحلويات التي اتخذها الناس هدايا لنجاح أبنائهم كدلالة تحضر .

ولأن المدن تحتفظ بشيء من ذاكرتها فبقايا حي المدقوق وبعض بيوت في الحيين الآخرين صمدت، كما صمدتْ بقالة العم حجوري رغم تعدد أماكن التسوق الحديث، وبقي مقهى النجوم الذي ما زال يستقبل زبائنه مع بعض التعديلات المتناغمة مع التغير حيث أضاف« جرادي » تلفزيونات ملونة في كل ركن، واستبدل الهوائي القديم بعدة أطباق مقعرة ليشاهد مرتادو المقهى قنوات العالم المفتوح، ووفر مكتباً صغيراً به عدة أجهزة للنت والفاكس، وخدمات التواصل الحديث.

بعد مغادرة عوض الفرحي ويحيى المقروش وغيرهما من سكان الحي الذين غادروا إلى الأحياء الجديدة وتركوا منازلهم للوافدين لم يبق في الحي من سكانه الأصليين أخيراً إلا أنا والخالة «حليمة مجدلية » التي أصرت على بقائها في منزلها رغم تبدل السكان، وحصل بعض من تأخر من جيراننا على تعويض مقابل الشارع الخلفي لبيتنا فبنوا فيللاً مسلحة في الجهة الشمالية للمدينة، ومنهم من سكن شققاً فاخرة في العمائر التي تطل على الشوارع الرئيسة حيث توفر الماء والكهرباء والخدمات، وكانت أمي قبل موتها تذكرني ببعضهم لكونها تزورهم، أو تقابلهم في مناسبات، وأحياناً تتحدث عن موت أحدهم أو سفره للعلاج في مدينة أخرى، وقد أجدها تبكي بحرقة على إحدى صديقاتها التي غادرت الحياة.

عندما ذهبتُ إلى أمي ذات مساء أثناء عملي في الورشة حدثتني عن ما رأته عند نورة مكدشية في شقتها الحديثة التي تشبه الأحلام فغرفها واسعة بفرش وثيرة وملونة بألوان زاهية على سرر متعددة المقاسات، وفي بعضها دواليب أنيقة وزعت فيها ملابسها بشكل

مرتب، ومطبخها ممتلئ بأنواع كثيرة من الأطباق والأواني والأكواب الزجاجية الفاخرة، ولديها ثلاث دورات مياه في أحدها مسبح صغير فيه العديد من العطور والشامبوهات وعبوات تنظيف الوجه وتنعيم البشرة ومزيلات العرق، وفي غرفة نومها مرايا في منتصف الجدار، وتسريحة تحمل فوقها أشكالاً من عبوات العطور والمكياج، ومع زوجها الذي أصبح موظفاً مرموقاً سيارة فخمة، وأنشأ مؤسسة باسم نورة تعمل في صيانة المستشفى الحديث.

كانت أمي في ذلك المساء تتحدث وهي تشعر بحسرة عميقة وهي تنظر إلى صندوقها الخشبي الذي تضع ملابسها فيه، وتمرر نظرها إلى المطبخ المتهالك الذي لايحوي غير آنية من معدن النحاس وبقايا فخار، لكني لا أعلم ما إذا كانت تلوم أبي في تلك الساعة أم إنها تلومني، وتندب حظها.

حرصتُ بعد أن قرأتُ حسرة أمي أن أغير في المنزل أشياء عديدة خلال عملي في الورشة فاشتريت على مراحل ثلاجة وفرناً وغسالة وتلفزيوناً ملوناً، وبعض أواني الإستيل وأكواب الزجاج، وغيرتُ طلاء المنزل الداخلي من بني إلى أبيض فاتح، وأهديت أمي عطوراً في مناسبات الأعياد، واستبدلت الفرش القديمة بجديدة، ولم أستطع تسديد قيمة هذه المشتريات إلا على دفعات لقلة راتبي في الورشة .

ومع تكاثر السيارات في مدينتنا كثرت حوادث دهس الحمير التي عادة ما تقف في منتصف الشارع فانقرضت مما أغضب الشباب الذين تعودوا على وطء إناثها، والسباق بذكورها، ولم تكن الكلاب أكثر حظاً

فمنذ شاعت حادثة كلبة قاسم عدوان التي وطأها أحد عماله الهنود فصرّت على قضيبه بأن أمسكته بفرجها وذهبت تجوب به المزارع والناس تصرخ بين لاعن ومشفق حتى مرت بأحدهم فضرب جنبها بقوة فأطلقته، لكن بعض من في الحقول رجموه حتى أدموه، وطلب بعض أهالي المدينة من الشرطة إخراجه من البلد بعد أن شاع خبره.

وعندما وصل الخبر إلى النساء في المدينة علقت حليمة ساخرة بقولها: فروج النساء في المدينة لا تجد ما يسدها وهذا الهندي الحيوان يطأ الكلبة.

صندوق أمي

في الأسبوع التالي من خروجي من السجن طرق أحد رجال الشرطة بابي وطلب مني الحضور إلى مكتب الشرطة لاستلام صندوق أمي الذي تحفظوا عليه بعد موتها، ذهبت لاستلامه في الصباح، كان صندوقاً خشبياً بلون أسود عليه قفل كبير نسبياً، وبعد توقيع ورقة على استلامه حملته على كتفي وعندما وصلت البيت فتحته بعد أن اضطررت إلى كسر القفل حيث لم أستلم المفتاح من الشرطة، ولم أجده في البيت، بدأت أتفحص ما بداخله فوجدت سبع قطع أقمشة نسائية جديدة لم تخطها أمي بعد، ربما هي تحتفظ بها لزواجي حيث تبدو غالية الثمن وألوانها مبهجة ربما جاءتها كهدايا من العرائس اللاتي كانت تزينهن، شممت عبق أمي فيها فبكيت، وبين الأقمشة توزعت أشياء أخرى كبعض العطور القديمة (أبو طير، وريف دور) إلى جانب مكحلة مملوءة بمسحوق الإثمد الذي يحافظ على النظر، ومرآة صغيرة، وزجاجة صغيرة فيها دهن العنبر، وصرة وجدت فيها ما يزيد على ألفي ريال وبضع عشرات، كانت مفاجأتي وجود صورة قديمة بالأبيض والأسود في جيب الشنطة لثلاثة أطفال، وبعد تأمل لم يطل كثيراً كنت أنا وياسر وريم بجانب المرجيحة الخشبية التي صنعها أبي في فِناء بيتنا.

- من صوّرها ؟، وكيف احتفظت بها أمي؟!.

حاولت أن أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام لأتذكر شيئاً عن هذه الصورة فتذكرت أحد موظفي الجمارك الذي زار يحيى المقروش وراجع معه بعض السجلات وهو يحمل آلة صغيرة في يده، ربما هي الكاميرا التي التقطت لنا هذه الصورة، ولعل المقروش أهداها لأمي، أو ربما صفية.

- هل كانت أمي تقرأ الطالع فحفظت لي هذه الصورة التي تذكرني بأيام الطفولة السعيدة ؟.

مع أن الصورة لا تظهر الألوان الحقيقية لكنها تبين الملون من غيره من خلال الفارق بين الأبيض والأسود، أخذت أتأمل الصورة فوجدتني نحيلاً بثوب قصير أبيض إلى ما دون الركبة بقليل،حاسر الرأس، وبدون حذاء، وتظهر بقع التراب في الجزء الظاهر من ساقيّ، أما ياسر فيظهر أطول مني قليلاً يلبس سروالاً قصيراً ملوناً وفانيلة ملونة أيضاً، بدون حذاء، وشعره طويل ومنفوش، وتظهر ريم مرتدية فستاناً ملوناً تزينه بعض الورود، وتلبس حذاء، وشعرها مسدل على كتفيها وظهرها، ونبدو مستعدين للصورة حيث كنا متجهين بشكل واضح باتجاه المصور، وتظهر خلفنا المرجيحة الخشبية وبعض دجاجات أمي وقطة تراقب وضعنا من بعيد.

وضعت الصورة على واجهة الدولاب لأتأملها متى ما شعرت بحالة شوق إلى الماضي فقد كانت توحي بالكثير من الذكريات ورحت أتأوه:

آآآآه لو أنني أعلم منذ تلك الأيام عن مصيري بعد عشرات

السنين، وأنني سأكون بمثل هذه الحالة لكنت فكرت مبكراً في طريقة أخرى في التعاطي مع الحياة، ووفرت على نفسي وعلى أمي الكثير من المعاناة كأن أحترف حرفة تحقق لي الاستقرار في وقت كان يمكنني فعل شيء.

عندما أبحث عن لحظة سعيدة في تاريخي يمكن أن تمثل أمامي كإنجاز لم أجد سوى لحظة حصولي على الثانوية لأن فرحة أمي كانت أكبر من فرحتي، وربما تكون الثانية تمثل في اللحظة التي قدتُ فيها سيارتي التي جمعتها بخبرتي إلا أن اللحظتين لم تكن سوى وميض عابر فلا أنا أفدت من شهادة الثانوية، ولا أنا تمتعت بقيادة سيارتي أكثر من أسبوعين وبعدها دخلت السجن متهماً بالإخلال بأمن البلد.

ظلت أيامي معلقة بـ (لو) التي تفتح عمل الشيطان: لو أنني تزوجت ريم فسيكون ذلك حدثاً تاريخياً في حياتي ينبني عليه مستقبلي لأنني سأكون حريصاً على إسعادها فسأحصل على وظيفة، وسأبتني لي فيلا على الشارع العام، وسأنجب أطفالاً يمشون إلى جانبي وأنا أشعر بشيء من الزهو.

لا أعرف إلى متى ستظل كلمة (لو) تدير شؤون حياتي المستقبلية، لكن مما لاشك فيه أن هذه حالي وأنني أقل قيمة من المتسكعين على جوانب المدينة.

بعد أشهر جرني الفراغ إلى زيارة الورشة فوجدتها خاوية إلا من عاملين يمنيين وبضع سيارات، وبدت على مسافة منها ورشة جديدة مكتظة، سلمت عليهما وسألتهما عن برهومي فقال أحدهم

: في غرفته. طرقت الباب ففتح،كان حضوري مفاجئاً له، هكذا بدا لي الأمر، عانقته بحرارة فبدا مرتاباً وقلقاً، ربما لأنني خرجت من السجن، ولدي عنه معلومات كثيرة ربما خاف أن أكون ذكرت شيئاً منها للشرطة.

سألته عن أحواله وعن عمر بانجو فأوضح أن أحواله ليست على ما يرام بسبب ما آلت إليه علاقته بمبروكة، أما عمر فقد مرض ولم يعد قادراً على الحضور للورشة خاصة بعد موت العم حمزاوي.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمك الله يا عم حمزواي النبيل.

- وكارلو، وكيفن أين ذهبا؟.

- كارلو: سافر إلى الفلبين، أما كيفن فمات في حادثة سيارة مع مجموعة من الشباب.

- والورشة. لماذا هي شبه خاوية؟!.

- لم يعد الزبائن يأتون إلينا بعد افتتاح الورشة الجديدة المجاورة لنا، وبعد أن مرض عمر أسند أمرها إلى يمنيين.

- وأنت.. ماذا تعمل؟

- أتعاون معهما كلما وجدت في نفسي رغبة للعمل، وأفكر بالعودة للسودان، لقد اشتقت إلى أهلي، الحياة ما دايرة تسلك معاي يا رجل!.

شعرت بحالة اليأس التي تعتريه فحاولت التخفيف عنه، وقلت له طرفة سمعتها في السجن :

(حج أعرابي فدخل مكة قبل الناس وتعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس).

ضحك برهومي ثم سألني : ماذا فعلت أنت؟

- خرجت من السجن قبل أشهر وليس لي رغبة في العمل فقد ماتت أمي بسببي، ولم يبق لي أحد.

أحسستُ بتوتره فعانقته وخرجت وكل منا يدعو للآخر بالتوفيق ؛ وتوجهتُ إلى مقهى النجوم لألتقي بجرادي لأعرف منه بعض الأخبار عن زبائنه القدامى، كان الوقت بعيد العصر بقليل رأيت في طريقي مجموعة من الناس يرقصون على وقع الطبول،كانت المفاجأة أن من يرقص السيف هو العدو اللدود «علي خمج « تسللت بين المشاهدين محاولاً أن لا يراني، ربما لايعرفني فقد تغيرت ملامحي لكني عرفته بملامحه وربما يعرفني على الفور، أو قد يكون نسيني فأنا لم أشكل له شيئاً مقارنة بما كان يشكله لي من رعب، تعالى صوت الزير، وتداخلت معه الطبلة فأحدثت لدي نشوة تمنيت أنني أجيد رقصة السيف كما يجيدها علي خمج الذي حظي بالكثير من التصفيق والإعجاب، وبعد لحظات أصابه ما يشبه الزار فداس الأرض بعنف كأنه مجموعة عفاريت وانتهى به الأمر في وسط حلقة الرقص منهكاً له شخير مخيف فأسرع بعض الناس برشه بالماء حتى نهض.

واصلت طريقي باتجاه المقهى فوجدته مملوءاً بالوافدين كحال المدينة التي تضج بهم، ولا عمل لأغلبهم فقد تدفقوا من كل البلدان الفقيرة معتقدين أن كل عائلة لدينا تملك بئراً من النفط،

لكن فاجعتهم كانت كبيرة عندما اصطدموا بالواقع فوجدوا فقراء ومعوزين،كما وجدوا شباباً بلا عمل يتسكعون في الشوارع، ويتوسلون بعض عمال الورش والمزارع والمحلات التجارية زجاجات عرَق ملوث، أو سجائر حشيش مغشوش، وبعضهم يمارس الرذيلة في أبشع صورها، فوجد بعض العمال فيهم سوقاً رائجة للدعارة المستترة، والتجارة في الممنوعات حتى أصبح العرَق الملوث يباع على ناصية الشارع، وحبوب المخدرات توزع على طلاب المدارس.

ظل صندوق أمي يحتفظ برائحتها التي تشدني إليها، فكلما شعرت بحاجة إلى تلك الرائحة الزكية أدخلت رأسي في الصندوق ومضيت أستنشق حتى أشعر بالدوار، وكلما ضعفت الرائحة رششت من عطورها، أما صورة طفولتي فهي أمامي أقرأ فيها عمري كلما مددت جسمي على الفراش المقابل.

سرقة الجماجم

مع الأيام شعرت أنني أتقدم في العمر، ومن أعراض ذلك أنني لم أعد ألقي بالاً للمتغيرات العصرية الكثيرة التي أراها كلما خرجت صدفة لغرض ضروري يخص معيشتي، لم أجد لدي رغبة في التعامل مع أجهزة التواصل الحديثة بشكل دائم، ويعتريني في الغالب شعور بأنها لا تعدو كونها متغيرات طفيفة، في شبابي كنت مجذوباً إلى الابتكار، لكن بعد مآل سيارتي زهدتُ في مظاهر المدنية الحديثة، والتجأت إلى تأمل الكون، ومظاهر الطبيعة كوقت الغروب ورؤية الشلالات في شعاب الجبل البعيد بعد المطر حيث أذهب إليها بين حين وآخر بعد أن أصبح الطريق معبداً متذكراً ما حل بياسر في رحلة الصيد قبل سنوات، وأمضي وقتاً في التجول في الغابات التي تقع على مسافة بضعةكيلومترات عن المدينة، وأستمتع برؤية التغيرات في البيئة، ومرات أذهب إلى البحر فأشاهد الذين يأتون مع السفن إلى الشاطئ فراراً من بلدانهم وطمعاً في عيش كريم حيث يمارسون الحياة بعفوية، بعد حين وجدتني غير راغب في مغادرة فراشي إلا بعد أن يعضني الجوع، إنني أشعر أن رحيلي إلى عالم آخر قد اقترب دون أن أستطيع التخمين في كيفية العيش هناك.

بعد عام من خروجي من السجن فوجئت بمحسن يطرق الباب،

تعانقنا بحرارة، وأكد رغبته في أن أكون عوناً له في مشاريعه القادمة فهو يريد الاستمرار في توزيع المخدرات، وأنه جاء بناءً على الوعد الذي وعدنيه في السجن، ارتبكت كثيراً فأخذ يزين لي الأمر.

- ستكسب مالاً وفيراً وأنت في بيتك

- كيف وأنا لا أريد الخروج من البيت، وليس لي رغبة في مقابلة الناس؟!.

- لا تخرج إلا في الليل، ومهمتك محصورة في إحضار جمجمة كل أسبوعين، أو ثلاثة من المقبرة حسب الحاجة، وتسليمها للمرسول الذي يستلمها منك بشفرة خاصة ستصلك على جوالك في الوقت المناسب.

نقدني مبلغ ثلاثة آلاف ريال، وقدم لي هاتفاً محمولاً بشريحة قابلة للاستبدال لكي يتم التواصل بيننا على المكان والزمان، وطلب مني أن أتابع بعض مواقع الإنترنت من خلال المحمول الذي قدمه لي لأتعرف على الأخبار المستجدة حول تجارة المخدرات .

لم يكن الأمر سهلاً فالدخول في مغامرة البحث عن الجماجم في مقبرة المدينة محفوف بالكثير من المخاطر والأهوال، لكن ضمان تدفق المال الذي وعد به محسن أغراني بخوض التجربة على غرابتها.

بدأت أطوف حول مقبرة المدينة التي دُفن فيها أجدادنا لأختبر مقدرتي على عمل كهذا، مشيت ناحية الجهة الشمالية كونها أقدم جهة دفن فيها الموتى وبدأت أحفر مقدمة القبور وأرفع اللحد، ثم سلطت نور مصباحي اليدوي فرأيت جمجمة متصلة بالرقبة فمددت

يدي داخل القبر ونزعتها عن بقية عظام الجسد وعدت بها إلى المنزل، وفي الموعد سلمتها لمرسول محسن بعد أن وصلتني الشفرة على جوالي قبل الموعد بساعة (عسل يا قشطة).

المقبرة مقفرة ومرعبة بعد منتصف الليل، وهو الوقت الذي أجده مناسباً حيث لا يأتي أحد لدفن ميت كي أتمكن من حفر القبر وإعادته على حاله بعد أخذ الجمجمة .

أصبحت المقبرة نزهتي الوحيدة التي أسير فيها في الظلام رغم وجود الثعابين والعقارب إلا أنني لا أخافها فهي تفر مني بمجرد إحساسها بحركتي، حتى تلك التي أجدها في داخل القبور أحياناً تأخذ جانباً حتى أنجز مهمتي وأعيد القبر إلى حاله، كنت أجد صعوبة في بادئ الأمر، وبعد أن تعودتُ أصبحتُ أنجز مهمتي في أسرع وقت، لقد كان الحفر ونزع الجمجمة وحملها في بادئ الأمر حدثاً خارقاً، ومع الأيام أصبح أمراً عادياً، لقد صدق بورخيس الذي قرأت له قوله في إحدى قصصه : (إن الحدث الخارق إذا وقع مرتين لم يعد رهيباً).

بعد أن أصبحت ممول محسن بالجماجم كان هو ممولي بالمخدر الذي يقدمه هدية مع المبلغ الذي يدفعه لي مع كل جمجمة، مرة يعطيني كمية من حبوب الكبتاجون ومرة حشيشة المارجوانا، ومع الأيام مضيت أتوغل في صمت حزين، وبداخلي صراخ يشق أوردتي بعد منتصف الليل حين يندلع بأحشائي حزن على ريم التي سرقها مني ياسر بجرأته وذكائه فأحرق حزني تارة بحبوب مخدرة، وأخرى بتدخين الحشيش حتى أشعر بأنني غارق في الاسترخاء الذي يشل

حركتي فألف جسدي في لحافي، وأدخل في غيبوبة المخدر بعد أن تزيد جرعته على قدرة أعصابي.

لم أجد مخرجاً لحزني عندما أصحو فأفر إلى قراءة بعض الكتب فأشعر بغثيان، حاولت أن أمارس كتابة مذكراتي فلم أجد لدي الحماس الكافي حيث أكتب عدة أسطر، ثم أنتحب، لا شيء يستطيع أن يعبّر عن حزني، لا الصراخ ولا الكتابة فتحل هواجس الانتحار، يكويني الشعور باليتم من كل حب وكل جمال، الحرمان الذي أعيشه أحرق بريق الابتسامة على شفتي، ومع الأيام لم أعد قادراً على ذرف دمعة واحدة، ولا أمل لي في أحد في هذا الكون يقف إلى جواري وكأنني مخلوق في عالم يختلف عني.

استخراج جمجمة من المقبرة حالة مرعبة حيث أجد قبوراً فيها نور، وقبوراً أخرى تخرج منها حيات، والأرعب من ذلك أن الجماجم التي أستخرجها تضاف إلى المخدرات التي يتعاطاها المدمنون بطريقة تسمى (الأورجنيك ماتيريل) أو بمعنى أدق تفعيل المادة العضوية بعملية كيمائية، وهذه المواد التي تحملها الجمجمة البشرية تجعل نسبة المخدر عالية التأثير.

لم أكن سأنجرّ إلى هذه الطريق المشينة لولا أن الناس قد اتهموني سلفاً بالتعاطي والترويج منذ حادثة سجني، لا أحد يصدق أن تلك المداهمة المشهودة كانت بسبب تجميع سيارة، وبعضهم لازال يذكر بعض حوادث السرقة فاعتبروني منحرفاً ومجرماً سلفاً، أعلم أنني أواسي نفسي بإشراك الناس في ذنبي في كوني أصبحت منبوذاً فقد

حاولت أن أبحث عن مكانة تليق بي وأعيش عيشاً كريماً لكن ظروفاً عديدة جرتني لهذا المصير الذي وجدتني مضطراً لركوبه.

كان ذهابي إلى المقبرة يشعرني أنني خارج العالم، ربما أنا أقرب إلى الأموات الذين أتأمل أحوالهم تحت اللحود، كم من مغدور وغادر !، وكم من ميت عاش محروماً من حبيبه !، وكم من إنسان دخل القبر قبل أن يكمل طموحاته، أو يستكمل أمنياته !، كم من فتاة وفتى لم ينعم بشبابه، ويروي عطش لذته وجوع عواطفه !.

كنت في المقبرة ذات مساء لأستخرج جمجمة، وبعد أن فرغت سمعت أنيناً موجعاً فانتحيت جانباً علي أتبين الأمر، ظننته في البداية طائر البوم ينعق لكن الأنين أصبح يتسع ويتردد في أكثر من مكان، وأكثر من جهة، وبدأت تلوح لي هيئات نساء بعباءاتهن السود، يتجهن إلى زاوية في المقبرة ورائحة بخور غريب تفوح في الأرجاء كأنه معمول من أعشاب عطرية، هدأ روعي عندما رأيت بعضهن يصعدن على ظهور بعض ويخرجن من فوق السور باتجاه الخبت، شعرت بطمأنينة لم أجتهد في تفسيرها غير أنهن جنازة لنفر من الجن لأن النساء عند الإنس لايدخلن المقابر ولا يشيعن الموتى، وقلت في نفسي ربما للجن طقوس أخرى، وتعاليم مختلفة ومضيت.

كانت أعداد الموتى تزيد في السنوات الأخيرة بسبب كثرة الحوادث وزيادة البشر، ومع الأيام وجدت في فك إحدى الجماجم أسنان ذهب فقررت البحث عن الذهب في جماجم الموتى بفحص الفك، وجمع ما أجده منها سواء تلك التي تبقى عالقة بالفك أو تلك التي أجدها تلمع

بين التراب عندما أسلط عليها ضوء مصباحي اليدوي، بعد حين بلغت بضعة عشر سناً عرضتها على أحد الصاغة ليشتريها فتردد لأنه ارتاب في كيفية حصولي عليها، وعندما سألني: من أين جمعتها ؟! تركته وعدت بها إلى المنزل خائباً، إلا أنه عندما رآني في المرة التالية طلب مني ما لدي فبعتها منه بثمن لم يحقق لي الرضا.

أسواط ضياع

لم يكن في نيتي أن أتلقى الحياة بيد واحدة، ولكي أخفف من وطء الملامة سأفترض أنني تأخرت وحدي عن الشمس فوجدتني أعهد بذراعي إلى خيانات كثيرة، وبجسدي إلى جمر تشعله المنايا، كانت السنوات تجري وأنا على رصيف الانتظار لحدث يغير حياتي، لا أميز بين فصول السنة بعد أن تخلى برد الشتاء عن زيارة المدينة وندر نزول المطر فاختفت نسائم الربيع وسط دخان عوادم السيارات ودخان مصانع الإسمنت التي أنشئت في طرف المدينة حيث الجبال التي تطحن صخورها الكسارات.

لم أبحث عن تواريخ الأيام في أوراق التقويم سوى ما يمر عرضاً على صفحة هاتفي المحمول من اسم يوم أو تاريخ دون أن يشكل لي أي معنى فسرعان ما أنسى اليوم الذي مر بي أو مررت به، ولأن عملي مقصور منذ زمن على الخروج ليلة أو ليلتين في الشهر لسرقة الجماجم وتسليمها حيناً لمبعوث محسن في ذات الليلة، أو الاحتفاظ بها في منزلي حتى يتم تحديد المكان والزمان فأنتقل بها في خفية بعيداً عن منزلي حيث يتم التسليم خارج سور المقبرة، وبعض الأحيان يتم على أطراف المدينة من جهة الشمال. عشتُ الوحدة أعواماً مليئة بالألم والعذاب النفسي الرهيب، صداقات محطّمة، وحبّ لم يشبّ

عن الطوق، وآمال في عيش كريم قد ماتت، فنتج عن كل ذلك هروب للمخدر، كرهت الناس والحياة، لا أعرف السبب الحقيقي وراء سيطرة الوحدة على نفسي، ما الذي يجعلني منزوياً في بيتي ؟! وأكره سماع أصوات الناس إلى درجة أنني أغلقت النوافذ، ووضعت وراءها بعض الكراتين والوسائد القديمة كي لا يتسرب إلى أذني صوت إنسان من الشارع ؟.

لا أعلم بالضبط هل أنا السبب في عدم الاندماج مع الناس بسبب شعوري بالفشل؟، أم إن المجتمع المتحول وما جرى فيه من تغير في العلاقات والمفاهيم كان سبب ما آلت إليه حالتي؟، أحياناً يداهمني شعور بأن وجودي في بيتي وفي محيط يتهمني بأنني سبب موت أمي يزيد من وحدتي لكن لا يوجد مكان آخر يؤيني ويحميني من أعين الناس غير هذا البيت المتهالك.

عندما تشعر أنك زائد عن حاجة المجتمع، وأنك على هامش حياة تمر ساعاتها ثقيلة، وأيامها عذاباً طويلاً يجتاحك ألم حدّ الفجيعة، حدّ الطحن.

عندما أهم بالخروج لضرورة قصوى إلى المقبرة لإحضار جمجمة، أو إلى بقالة العم حجوري التي صمدت في وجه التغيرات التي عمت مظاهر المدينة، وخاصة انتشار محلات المواد الغذائية الكبيرة والمطاعم المتعددة كنت أرتدي سترتي السوداء فوق ثوبي البني، وألفّ رأسي بشماغ أزرق، وأحيط وجهي بأطرافها متلصصاً خوفاً من عين ترقبني وترصد تحركاتي، وكثيراً ما تراجعت عند

عتبة الباب لمجرد توهم شخص يمكنه رؤيتي فأنا سارق جماجم المدينة وربما هناك من يتعقبني.

ذات يوم داهم بيتي مجموعة من أطفال الحي يرمون النوافذ بالحجارة ويطرقون الباب بعنف، ارتجفتُ خوفاً حتى سمعتهم يتضاحكون، من الذي دفعهم لمثل هذا العمل الاستفزازي؟! هكذا.. ثقب رأسي سؤال مرتبك.

حاولت أن يمرّ الأمر على أنه نزق أطفال لكنهم تمادوا في غيهم فأمطروا الباب والنوافذ بمزيد من الحجارة حتى ظننت أنهم سيكسرون الباب فصعدت إلى السطح، ومن وراء جدار رميت أحدهم بحصاة أصابت رأسه فأدمته على ما يبدو، وتعالى صوته باكياً، ولم يعرف رفاقه السبب لكن رؤية الدم أخافتهم ففروا بعيداً.

بين حين وآخر تحضر ذكرى ريم في هيئة باذخة من خلال أجساد نساء اليوتيوب العاريات اللاتي يظهرن عبر المواقع الإباحية في هاتفي المحمول بمؤخرات ضخمة تستدعي الذكورة فأسفح ماءها على منظر إحدى تلك المؤخرات وأنام.

مرت بي نوبات من الصداع والجوع والغثيان والحساسية الجلدية التي جعلتني أهرش جلدي حتى تقرح وتحول إلى بقع سوداء وحمراء، لكن نوبات الصداع النصفي كانت أشد عذاباً فلا تفيد معه مسكنات البنادول فأغسل معدتي بزيت الخروع فأشعر أن أمعائي تخرج حين لم يجد الملين ما يخرجه من بطني . فأعود إلى المخدر الذي يدخلني في عذاب آخر من ألم المفاصل حتى أتمنى أن أسحق عظامي.

وكلما أردت أن أتسلى بمشاهد التلفزيون وجدته يتحدث عن الحروب والقتل والدمار والتهجير لملايين البشر في سوريا واليمن والعراق وليبيا وفلسطين والصومال وجنوب السودان وغيرها فتقفز إلى ذاكرتي مقولة لأحد أبطال رواية (رقصة الوداع) لميلان كونديرا عن السياسة التي أوصلت هذه البلدان إلى حالها المخزي عندما قال : (السياسة هي أتفه ما في الحياة، والأقل قيمة، إنها الرغوة القذرة الطافية على مياه النهر).

تركت القنوات الإخبارية المثقلة بالقتل والتشريد وتفشي الأوبئة وذهبت إلى البرامج العلمية والاكتشافات في القنوات العالمية، وأخذتُ أقارن ما شاهدته فيها بحالة العرب المقصورة على الكلام والحروب وتبادل التهم والسباب وترويج التوافه على أنها أمور مهمة، وممارسة الخيانة على أنها ذكاء وحنكة فأدركت أن لا حظ للعرب سوى في الكلام، ثم تابعت قنوات الأفلام العالمية، وعلى مدى أسابيع تابعت الفيلم المرعب (saw) منشار، حيث وجدت في القصة رجلاً يشبهني في ممارسة التعامل مع الجثث يسمى (إيد جين) لكننا نختلف في الممارسة فهو يقتل ضحاياه بطرق بشعة بعد أن يستدرجهم إلى بيته، ثم يقوم بتحويل جثثهم إلى أعمال فنية، وربما اتفقنا في الهدف الذي يتمحور في جلب المال لنعيش، وإن اختلفت الطريقة في التعامل.

لقد سبب لي الفيلم حالة من الرغبة في الانتقام، واجتاحني شعور دموي بأن أسعى إلى قتل ياسر وريم فهما سبب أساس في الكثير مما آلت إليه حياتي، لكن ذلك التفكير لم يتعد كونه مشاعر عدوانية صعبة

التنفيذ فياسر في السجن بسبب قتله لابنه، أما ريم فتقول الأخبار المسرّبة أنها في بيت خالها، وهي تعاني من حالة مرضية قاسية.

عندما أفكر في الخروج من بيتي المقفر أتذكر أن حي المدقوق مسكون بالوافدين،لم يعد فيه أحد من أهله إلا أنا وخالة حليمة التي زينت بيتها وجعلته قادراً على الحياة رغم كبر سنها، لا أحد يعرفني فيقول صباح النور، أو مساء الخير، ولا أقولها لأحد، أشعر أحياناً أنني صرت نسياً منسياً رغم أنني مازلت أجر أقدامي على الأرض.

زواج مشْبوه

حالة غريبة أن أجد تاريخي مرتبط بأحداث قام بها ياسر فمنذ إقدامه على نحر ابنه عمر بدأت أشعر بيأس من الحياة والناس حيث تطورت عندي حالة الرغبة في الوحدة تتنامى، ومعها يتنامى الشعور بالخيبات، وكلما تذكرت أن أمي كانت تتوقع لي مستقبلاً باهراً عطفاً على حيويتي أيام الطفولة والصِبا حين كنت كثير الحركة شديد التعلق بالآخرين، أفرح لوجود جيراني بيننا، وإذا حل علينا أحد أخوالي أتفانى في خدمته وإظهار الحفاوة به.

زملائي في الدراسة عبر مراحل التعليم كانوا يشيدون بديناميكية العلاقة بيننا، إلا أنها مع كثرة مشاكل ياسر الملازم لي كظلي أخذت تتقلص، عشرات السنين مرت علي وأنا أتلمس ذاتي المنقادة خلف ياسر أفعالاً، وخلف ريم مشاعرَ، وبعد هذا العمر أتساءل عن وظيفة وجودي ؟! فأنا على مشارف الستين مجرد كائن يعيش ليموت دون أن يكون له بصمة في الحياة غير كتلة اللحم التي أنقلها من مكان إلى آخر، وبها ولأجلها سببت الكثير من الأذى بالتعاون مع محسن الذي فتك بأجيال من الشباب من خلال ترويجه للمخدرات، سافرت في ذاتي وشعرت خلال رحلاتي المتواصلة بحالات شديدة من اليأس والحزن، حاولت مرات عديدة أن أخرج من رتابة ذاتي المادية إلى

رحابة جوهري الروحي، سنوات كثيرة أمضيتها في البحث عني فلم أجدني، أجد الجسد الذي مللت منه ولم أجد الجوهر الذي يحركني إلى الجمال والحياة، أبدو مجرد جسد مقاد إلى فعل الأشياء دون قناعة مما جعلني أغرق مرات عديدة في تناقضات لا حد لها تزيدني تأكيداً على أن حالتي ميؤوس منها كحال صديقي «ياسر «الذي أقدم بدم بارد على ذبح ابنه الذي لم يتجاوز العاشرة بسبب تردي نفسيته التي أفسدتها الظروف والعبثية والمخدرات.

في أيامي الأخيرة يختطف تفكيري شعور خاص بالتوجس من الموت مع أنني لست راضياً عن الحياة التي لم تمنحني فرصة العيش بشكل طبيعي، ولم أنغمس في ملذاتها ونعيمها كما فعل (ياسر) الذي مارس كل شيء يحبه، ربما لأن أمي كانت تمنحني جرعات من المثالية والتفاني في العمل، وحرصتْ طيلة حياتها أن لا تحتاج إلى أحد فتولّدت لدي قناعة تامة على عدم الركون على الآخرين.

لا أعرف لماذا أجدني مدفوعاً إلى لقاء خالة حليمة مجدلية لمعرفة تفاصيل أكثر عن ياسر وريم فمنذ اليوم الذي أقدم فيه (ياسر) على قتل ابنه (عمر) دهمني فضول لمعرفة تفاصيل أكثر فذهبت لأطرق الباب على خالة حليمة كما نسميها، ناديتها:

- خالة حليمة.

- جاء صوتها ضعيفاً متهدجاً: من عند الباب؟

- أنا وحيد.

فتحت الباب فإذا بي بامرأة قد سلبتها السنين حيويتها التي عرفتها فيها، بكت واحتضنتني متسائلة :

- ما الذي ذكرك بي يا وحيد ؟ سنوات مرت لم أرك فيها.

- ظروف الحياة يا خالة.

سألتها عن ياسر لأنها تعرف مدى ارتباطي به وبريم منذ طفولتنا فبكت بمرارة :

- ياسر في السجن منذ نحر ابنه.

- وريم أين هي ؟!

- في بيت خالها الكوني.

- ما الذي جعل ياسر يقدم على جريمته؟.

زاد نحيبها.. لا أعرف ما الذي جرى له، كانت له محاولات قبل ذلك لقتل ابنته (نور) التي تكبر عمر بثلاث سنوات حيث ذهب إلى مدرسة البنات طالباً أخذها عدة مرات لكن إدارة المدرسة كانت ترفض خروجها ما جعله يتجه لقتل ابنه أولاً، ربما هو تحت تأثير الهلوسة التي أصابته نتيجة إدمانه المخدرات وشعوره الدائم بالإحباط مما وصل إليه حاله، وكثيراً ما كان يهدد بقتل زوجته فاحتمت (ريم) بخالها عندما شعرت أنه سيفتك بها وبابنتها نور بعد أن نحر عمر، لم يعد ياسر منذ مدة يأبه لشيء في الحياة سوى الحصول على الكيف بأي ثمن، ولو بجر زوجته للفاحشة، أو بيع نور وعمر للشيطان على أي وجه، لقد ساءت أحواله المادية، ولم يعد قادراً على الإنفاق على بيته

فقرر التخلص من أسرته بالقتل، لقد ذبح ياسر ابنه عمر بعد أن خرج من السجن بسبب المخدرات حيث أخذه من المدرسة الابتدائية (وهو بالصف الرابع) وذهب به إلى فِناء بيت قديم، وهناك احتز رقبته الصغيرة على عجل بسكين حاد وتركه على حاله، ثم ذهب مسرعاً إلى بيته لينحر زوجته وابنته (نور) لكن عندما شاهد أحد الرجال ياسر مشهراً سكينته وعليها آثار الدم ذهب إلى الفِناء الذي خرج منه ليجد الطفل مذبوحاً فأبلغ الشرطة التي بدورها قامت بمطاردة ياسر والقبض عليه قبل أن يجد الوقت الكافي للدخول على زوجته في بيت خالها.

بكت خالة حليمة بكاء مراً، وتعالى نحيبها فرابني الأمر وسألتها:

- لماذا تبكين عليه بهذه الحرقة .

- ياسر ابني يا وحيد، حملتُ به سفاحاً، ولما ولدته وضعته في قارب عوض الفرحي لمعرفتي بحاجته هو ونوره إلى طفل يملأ عليهما البيت، وليعيش تحت عيني، كنت أرضعه من ثديّ الذي كان يتدفق حليباً في غفلة نورة مكدشية، وريم ابنتي أيضاً فقد أرضعتها مرات عديدة عندما تأتي مع ياسر.

- هما إذن أخوان من الرضاعة !، لماذا لم تتحدثي بهذا ؟! كيف تسكتين على زواجهما.

- لم أكن أعلم أنهما سيتزوجان، وعندما حدث الأمر لم يكن باستطاعتي إفشاء سر كهذا.

- كنتُ أستغرب اهتمامك به عندما كبر !، لكن لماذا كنت تحرضينه على بعض رجال الحي؟!

- لأنهم ظلمة، جروني إلى الكثير من الفساد، ولم أستطع أخذ حقي منهم، وكان ياسر أملي الوحيد في الانتقام منهم.

- من هو أبوه ؟، لماذا لا تواجهينه بجريرته ؟!.

- لم أعرف من هو، لأن أغلب رجال الحي يمرون بي دائماً .

وضعتُ في يد خالة حليمة بعض النقود وغادرت مصعوقاً مما سمعت وتركتها تبكي بمرارة لم أشهدها من قبل، ما سمعته من خالة حليمة مجدلية أكد لي ما كنت أعرفه من ارتباط روحي بينها وبين ياسر غير أني أولت ذلك بالسوء عندما اعتقدته إعجاباً، إذن هو ابنها الذي رباه عوض الفرحي ونورة مكدشية تحت نظرها دون أن يعلما أنه ابنها، وكثيراً ما منعاه عنها خوفاً منها.

هل كان ياسر يعلم أن ريم أخته من الرضاعة ؟! هذا السؤال الذي لم أسأله لخالة حليمة، قد يكون علم ذلك فسبب له صدمة نفسية على صدماته المتعددة.

لقد تغيرت نفسيتي بالكامل بعد أن فاجأني خبر مقتل (عمر) لأنه ابن المرأة التي أحببتها ولم تقبل بي زوجاً، وفضلت الزواج بصديقي ياسر الذي أحبته وقررتْ أن تختاره رغم علمها بتعلقي بها.

لوثة خبر نحر ياسر لابنه أصابتني في مقتل فبقيتُ بعدها أياماً أبكي بمرارة على فقد ذلك الطفل البريء الذي لا ذنب له فيما يجري

حوله، وزاد في حزني أن فرحته بقدوم والده إلى المدرسة ليأخذه بعد غيبة أشهر في السجن كانت ما يسيطر عليه أمام أقرانه الذين من المؤكد أنهم لطالما عيروه مراراً بأن والده مجرم، كان عمر بحسب الروايات التي رواها بعض أقرانه يتظاهر أمامهم أن والده حضر لأخذه لأنه يحبه وسيحميه من سخريتهم في المستقبل، ربما كان سيشرح لوالده حاجته له ليكون بجانبه يمنحه دفء الأبوة، ويسأل عن درجاته التي يكتسبها بتفوق، ويمنحه كبقية الآباء دراهم معدودة لفسحة اليوم المدرسي ليشتري بها فطيرة وعصيراً معلباً كأقرانه، لم يكن يدور بخلده أن والده سيقتاده إلى الفِناء المهجور ليضع حداً لحياته بسكين قطعت رقبته الصغيرة التي تشبه رقبة عصفور لم يغادر عشه بعد .

أضغاث أحلام

أصعب شيء على النفس عندما تمضي سنوات تبحث فيها عن وسيلة تسمع من خلالها صوت حبيبتك التي شغلت عمرك كله ليس من أجل أن تطارحها الغرام، وإنما لتغسل بصوتها أدران الحب التي رانت على القلب.

سنوات من المحاولات الفاشلة التي زادت فيها أحزاني، واتسعت جراحي، وأكلتني الأسئلة حول سر أن تحب امرأة لا تحبك، أي قدر هذا الذي قذف في قلبي جوع الحب لريم في حين أنني لا أشغل حيزاً ولو هامشياً في تفكيرها أو ذاكرتها، كيف استطاعت ريم أن تمحوني نهائياً ؟! في حين أنني بحاجة ماسة إلى صوتها لتسأل عن حالي دون أن تعيد سيرة الحب الذي توهمته أنا، لكن كيف لها أن تسأل وهي لا تشعر بأهمية لوجودي في الحياة ؟!، أو هي تعلم أن مجرد سؤالها عني ومحادثتي قد تجر عليها غضب ياسر الذي لم يعد يحتمل مزيداً من الضغوط حتى يفْتِك بها، ثم من أين لها أن تحصل على هاتفي وهي محاصرة في بيتها لا تخرج قيد شبر ؟!.

هل سيعذبها الله بسبب ما ألحقته بقلبي من ألم تجاهلها ؟، عندما أشعر أنها نصفي الذي يعذبني أبكي محزوناً على ولدها المذبوح بسكين

أبيه، وأشعر أن الشيطان ينزغ بيني وبين نصفي عندما وسوس أن ما جرى لها هو جزء من عذاب هجرها لي، أو عذاب لي لأنني تجرأت يوماً وضربتها في ظهرها لأنها انتصرت لياسر ضدي وكنت أهيم بها حباً فأكلتني نار الغيرة ووجدتني أضربها بحبل صغير دون شعور فبكت بحرقة حتى جاءت أمها لتنتصر لها.

عندما كنت أشاهد عمر يمشي في الشارع في السنة الأولى لدراسته راودتني فكرة أنه ابني فناديته لأحضنه وأعطيه بعض النقود برغم توجسي من أن يظهر لي ياسر فيتحول الأمر إلى مشكلة لا قبل لي بها، وعندما كبر قليلاً أصبح يتحاشاني فعرفت أنها توجيهات أمه.

ظل عمر الخيط الوهمي الذي يصلني بريم فهو رائحتها ودمها الذي يخطو أمامي لولا أنه ملوث بدم ياسر، تركتُ ملاحقة عمر بعد أن رأيت صدوده خوفاً من أن يصل الأمر إلى ياسر، وتحاشياً لألسنة الناس التي لا ترحم فقد يتهمونني بالشذوذ وأن أهدافي سيئة مع هذا الطفل لأنهم حتماً لا يعرفون من تكون أمه بالنسبة لي، وأنها نصفي المفقود.

ماذا لو علمت ريم أنها أخت ياسر من الرضاعة ؟ هل كانت ستتركه وتقبل بي زوجاً ؟ وكيف ستكون حياتي معها ؟!

أسئلة مكررة تشبه الأسطوانة المجوجة، لكنها جزء من قدري القاهر، وجزء من فشلي المتلاحق حين لم أستطع أن أخرج من دائرتي الضيقة وكأن حياتي حلقة تدور حول ياسر وريم.

أمر سيئ للغاية أن تكون الحياة بلا هدف، وبلا عمل لأنك حينها

تشعر بعدم جدوى وجودك، ربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلتني أنخرط في عصابة محسن، أعلم أن ما أقوم به لا يتفق مع الضمير الحي الذي يصارعني على الدوام، وأشعر أن أمي بعد أن وقفتُ على قبرها قبل أسابيع أستحثها أن تنفحني بحالة صبر كتلك الحالات التي كانت تمنحني عندما كانت بجانبي إلا أنها لم تفعل، عندما وقفت على قبرها كان بيدي جمجمة متوسطة الحجم لأسلمها بعد ساعات لمرسول محسن، شعرت أن أمي ترى وتسمع فحدثتها عن شوقي لها، وعن ذكرى طفولتي عندما كنت أتشبث بثيدها كي أرضع فتداعب شعرات رأسي من الخلف فأدخل في خدر يسلمني للنوم، حدثتها عنما أصابني بعدها من حسرات، وما حلّ بي من يأس: أمي الحبيبة ليس لي ذنب في ما أصابك، لقد ظلموني بما لم يدر في خلدي، وظلموك إذ أخذوني من بين يديك بتلك الجلبة والقسوة التي بسببها سقط قلبك الحنون، وتركوني بعدك للندم والأحزان، هذا أنا ابنك الماثل أمامك الذي تركتِه شاباً، أصبحتُ شيخاً لم أعد قادراً على ممارسة تلك الأفعال التي تنهينني عنها كتسلق شجرة السدر، ولعب كرة القدم، ومطاردة دجاجاتك في فناء الدار، أوكنتِ تأمرينني بها كرعي شياهك في الخبت أو حل واجبات المدرسة، أشعر أنك حزينة علي وغاضبة مني بقدر ما كنتُ فاشلاً في تحقيق آمالك في ابنك الوحيد، وها أنا أكثر فشلاً في تحقيق أحلامي، إنه قدري يا أمي الحبيبة أن يكون ردائي الفشل، وقدرك أن تموتي ملتحفة بالغبن.

الغريب في أمري أنني بلا هوايات تعبيرية فأنا لا أحب الرسم منذ الابتدائية، وكلما تذكرت توبيخ معلم الرسم ازددت نفوراً منه،

ولا أستطيع قرض الشعر، ولا نسج الحكايات، ولم أنجح في لفت نظر المهتمين بكرة القدم كي يضموني إلى نادي الوفاق الذي يمثل المدينة في مناسبات الرياضة، ولم أكن أفضّل القراءة، وإنما ألجأ إليها لجوءاً عندما أشعر بالفراغ في بعض الأحيان، كما أن الكتابة لا تمثل لي هاجساً غير أني أدون فكرة ما، أو حدث أعود إليه بعد ضعف ذاكرتي بسبب التعاطي، أستغرب كيف يُمضي بعضهم وقته في قراءة رواية من ست مئة صفحة، أو كتاب من عدة مجلدات !، وكيف يكتب كاتب رواية من مئات الصفحات ! وكم يمضي من الوقت في ترتيب فصولها ومعالجة عباراتها ! تبدو لي عملية مضنية بلا فائدة. أقول هذا لأنني لم أستطع تدوين مذكراتي اليومية، أو أفكاري الطارئة التي تختفي في وقت وجيز بلا رجعة، ربما أن كتابة الرواية مرادفة للبطالة في العالم الثالث كما يقال.

ظلت أضغاث أحلامي تأخذني في اتجاه الماضي ليتحول وقتي إلى بكائية مقيتة، لكن صوت أبي دعاني أن أمثل بين يديه، أسندت ظهري للجدار، وتركت رعشة جسدي تهز أرجائي فانفرجت فوهة أمامي مملوءة بالجماجم تتحدث لغات شتى، وجاء صوت أبي :

- هؤلاء هم خصومك.

انطفأ الضوء فقمت أسبح في العتمة أبحث عن أبي لينقذني من ضجيج الجماجم وكابوس العتمة.

قصاص

في الساحة المجاورة للجامع الكبير وسط المدينة حيث يتم تنفذ أحكام الإعدام على المجرمين أحضرت الشرطة يوم الجمعة ٢٠١٥م ياسر لتنفيد حكم الإعدام عليه بسبب جريمته البشعة بذبح ابنه، وتكرار ترويجه للمخدرات التي سجن بسببها عدة مرات حيث تلا أحد موظفي الداخلية البيان التالي : (الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه المبين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

أقدم المدعو : ياسر عوض الفرحي على قتل ابنه عمر ياسر عوض

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

الفرحي وذلك بنحره بسكين حتى فارق الحياة، وبفضل من الله تمكنت سلطات الأمن من القبض على الجاني المذكور وأسفر التحقيق معه باعترافه بقتل ابنه وترويجه المستمر للمخدرات، وبإحالته إلى المحكمة العامة صدر بحقه صك شرعي يقضي بثبوت ما نسب إليه شرعاً، والحكم عليه بالقتل قصاصاً في ولده، وتعزيراً في ترويجه المخدرات، وسعيه في الإفساد في الأرض، وصُدّق الحكم...)

ظهرت حليمة مجدلية فجأة تجر خطاها المثقلة بفعل كبر السن وعظم المصيبة متدثرة بعباءتها السوداء لتصيح ولدي ياسر.. ولدي ياسر، ثم رمت عباءتها، وانكبّت عليه لتحتضنه وتقبله متوسلة الجميع في العفو عنه فأبعدها رجال الشرطة وهي تصيح ولدي ياسر.. ولدي ياسر، لكن السياف عاجله بضربة في عنقه بالسيف ففصل رأسه عن جسده بضربة واحدة فكبّر الناس الذين ملؤوا الساحة.

عدتُ بعد هذا المشهد مرعوباً أرتجفُ من هول ما حل بياسر، يا لها من نهاية محزنة تقض المضجع، وتدمي الفؤاد، وبقي مشهد القتل يلاحقني فأبكي، وبسبب ذلك جفاني النوم لأيام فقد كنت أتصور مشاهد الحساب على السرقات، أستحضر وجه ياسر القاسي الذي رأيته في انتظار ضربة السياف، ليس وجهه البريء الماثل في الصورة التي أمامي على الدولاب، أسأله لماذا كل تلك الممارسات السيئة ؟، أخاطبه كأنه أمامي، لم أشارك في الصلاة عليه، ولم أذهب للمقبرة الجديدة حيث ذهب به بعض موظفي البلدية لدفنه، لا أحب حضور الجنائز ولا المشاركة في الدفن والتأبين، الجنازة التي حضرتها مكرهاً كانت جنازة أبي، ثم جنازة خالي «ناجع» بعد ذلك بأشهر حيث دهسته

سيارة في الشارع العام وأجبرتني أمي على مرافقتها لحضور مراسم الدفن والعزاء، كرهت الموت منذ رأيت أبي ممدداً بلا حراك وقد لفوه بقماش أبيض وأودعوه الحفرة، وكان قتل ياسر نذير شؤم آخر تبدو فيه الظروف تمارس سطوتها بعناية فتتقلص رغبتي في الحياة يوماً بعد يوم، وتضيع مني بوصلة العمر بينما تتسع فوهة مأساتي.

وصلتني رسالة من محسن على جوالي بعد أيام من مقتل ياسر بضرورة إحضار جمجمة وتسليمها آخر الليل قرب المقبرة،كنت حينها في ما يشبه الغياب عن الوعي بسبب استحضاري لمشهد دم ياسر يسيل بجوار الجامع فلم أرد على رسالة محسن.

غضب محسن من تجاهلي لرسالته بعد أن أبلغه مرسوله بعدم حضوري في المكان فأرسل رسالة استفسار: - لماذا لم تُحضر الجمجمة؟

- أنا في حالة سيئة.

- العمل لا علاقة له بالحالات النفسية، لا خيار لك لأن عملنا سيتوقف، عليك إنجاز المهمة في أسرع وقت.

لم أعقب على الرسالة لشعوري بحقارة العمل الذي أمارسه، ولم يعد المال يشكل لي أي قيمة لأنني أصبحت زاهداً فيما بقي لي من أيام فجاءني التهديد:

- إذا لم تنجز المطلوب ستتم محاسبتك.

بعد تفكير خفت من تهديد محسن فهو مجرم محترف، وقد

يقتلني بدم بارد، والموت على يديه، أو بيد أحد أعوانه خسارة كبيرة لا أقبلها فرددت عليه:

- مساء غد عند السور الخارجي

- تمام.

ذهبت بعد التاسعة لأجدّ في البحث فقد أصبحت الجماجم شحيحة بعد نقل دفن الجثث إلى مقبرة البلدية البعيدة عن المدينة إلا من بعض الموتى الذين يختار أهلهم دفنهم هنا، ولم يبق إلا بضعة قبور من بينها قبر أبي وأمي، عند البحث لفت انتباهي وجود قبر جديد فقررت التعرف على صاحبه فأزلت التراب من جهة الرأس، ونزعت اللحد، وأضأت القبر بمصباحي اليدوي، صعدت من القبر رائحة المسك فقررت أن أنظر لوجه الميت وربما وجدت في فمه بعض الأسنان الذهبية، عندما كشفت عن الوجه ظهر بياض ناصع لفتاة شابة أجفانها مسدلة كأنها توحي بالخجل، وشعرها أسود وناعم في ثلاث ضفائر إحداها على الجانب الأيسر، والثانية عل الجانب الأيمن، أما الثالثة فخلف الرأس، لاحظت ذلك عندما حركت الرأس، اعتراني شعور بأن الجسد المسجّى في القبر هو جسد ريم مع أن الوجه ليس وجهها، وهذه الفتاة تصغرها كثيراً، أخذني الفضول إلى إزالة كفنها فظهر جسدها كاملاً بنهدين مدورين وخصر ناحل يتصل به ردفان كبيران وفخذان مرمريان، وساقان يعلوهما زغب خفيف، وقدمان جميلتان زين أظافرهما طلاء أرجواني ظهر أيضاً على أظافر اليدين، كان الجسد على الجانب الأيمن فمددته على الظهر فبدت لفافة قطن

بين الفخذين فأزلتها فظهرت عانتها بشعر كثيف، راودني شيطاني على وطئها، وفكرت أن أجلس على ركبتي وأرفع رجليها على كتفي فدهمني سؤال عن عذريتها، وكيف لي أن أعرف فأنا لم أطأ امرأة من قبل ؟!، وكيف لي أن أطأ امرأة ميتة وأنا أتجنب وطء الأحياء ؟! وبعد حالة صراع بين الرغبة والخوف لففت الكفن على الجسد الجميل الذي ليس فيه ما يدل على سبب الوفاة وأعدت اللحد والتراب الذي يغطيه، ووضعت حجراً أبيض على شكل يمامة فوق القبر كي أعرفه فقد أعود إليه بعد وقت لنزع الجمجمة بعد أن يفرغ الدود من أكل اللحم، وذهبت لنزع جمجمة من أحد القبور المتبقية فوجدت فيه ثعباناً رفض مغادرة القبر مما جعلني مضطراً لسحب الجمجمة بخطاف أعددته مسبقاً لمثل هذا الظرف، حملت الجمجمة إلى سطح الغرفة القريبة من مدخل المقبرة والتي عادة ما يستخدمها الحفارون لحفظ فؤوسهم ومساحيهم وجرادلهم وبعض الماء، ثم يغلقون الباب بقفل لكي لا يستخدم أحد غيرهم تلك الأدوات، أما أنا فلم أكن محتاجاً لأكثر من مسحات أزيل بها تراب القبر من جهة الرأس جانباً ثم أنزع الشاهد وأنحّي اللحد جانباً، وقد أزيل أكثر من لحد حسب ظروف المكان، ثم أعيد القبر إلى وضعه بعد أخذ الجمجمة، أو ما يلمع أمام نور مصباحي اليدوي من أسنان الذهب، وبعد إعادة القبر على هيئته أضع بعض الحشائش الجافة لكي لا يشعر أحد من زوار المقبرة بريبة .

بقيت فوق الغرفة أنتظر مرسول محسن ممدداً على ظهري أرقب النجوم التي تختفي تارة وتظهر أخرى بسبب السحاب الذي أخذ يرسل قطرات، وكلما أوغل الليل زاد تساقط القطرات حتى تبللتُ

تماماً لتأتيني رسالة المكلف باستلام الجمجمة بالرمز المعهود (عسل يا قشطة) عند المكان المحدد.

تصفحت الواتساب في المنزل فوجدت أن الفتاة التي وجدتها قبل ساعات في القبر كانت معلمة ذاهبة عبر الطريق الجبلي لمدرستها فانقلبت المركبة التي تقلها وزميلاتها فماتت بسب ضربة في الرأس من الخلف نتج عنها نزيف داخلي بينما زميلاتها تعددت إصاباتهن .

لوثة

أشقى بشهوات هذا الجسد، لم يعلق بذاكرتي غير هيئة جسد ريم المتخيل حتى وأنا أقلب جسد الفتاة الجميلة في المقبرة والتي لا تمت لها بصلة،لم أتعرف على غيرها قبل أن تلتحف النساء بعباءاتهن السوداء، ولم يعد بالإمكان التفريق بين امرأة وأخرى منذ سنوات حيث أصبح وجه المرأة عورة، وصوتها عورة، وملابسها عورة، وريم المسكينة انطفأت كنجمة غارت في أفق بعيد منذ لبست تلك العباءة السوداء،حل بها الشؤم فذبلت كزهرة سلب الرمل كل النداوة عنها، وحولتها ظروفها إلى مرمى لنفايات ياسر الشرير، المقتول في داخله فكان همه الأول قتلها معه .

أتعس ما يحل بي تلك الأسئلة المرة التي لامبرر لها أحياناً: لماذا أتيتُ إلى الحياة؟! ألكي أتعذب فيها فقط؟!، إنني أتعذب من أجل ريم!، ومن أجل لقمة العيش!، ومن أجل فقد أمي!، أشعر أنني أصبحت شيخاً كبيراً فالأعمار لا تقاس بالسنوات، وإنما بقدر الشعور بها، وأنا أشعر أنني في أرذل العمر.

لا أعرف كيف نمْتُ بالأمس فقد كنت مرهقاً ؟!، لكن عيني قبل النوم لم تفارق الصورة القديمة المثبتة على درّج الدولاب، ثم رأيتني

ألبس سروالاً نسائياً من القطن، وفوقه ارتديتُ ثوباً حريرياً أرجواني اللون فتسرب داخلي شعور ممتع ومفعم بالطيبة والحب، وكبر ثدياي لإحساسي بالأمومة وحب الأطفال فتدفق الحليب منهما، وبينما أنا أتأمل ثديي الكبيرين ظهر لي رجل شبق يريد وضعهما في فمه فزجرته ليتوارى، ثم لبست أساور ذهبية ودهنت وجهي بالمكياج، وعندما نظرت في المرآة هالني جمالي، كنتُ ريم التي نمتُ وهي في ذاكرتي.

أفقتُ من النوم على غير العادة مبكراً على وقع الرؤيا فغالباً ما يأخذني النوم إلى العصر، لا أحد يقاسمني عضة الجوع التي دهمتني، حتى الفئران يبدو أنها رحلت من البيت لتبحث عن رزقها في الخارج، أريد شيئاً من الخبز والماء، أترجل عن سريري الموحل بالعرق والعفن، أسكب بعض الماء في حنجرتي لأفيق من الرهبة قليلاً، كان وجه ريم المتخيل يحاصرني، أطوح بأفكاري المكسرة في طريق الهواء الساخن الذي يلج من شقوق الباب الصدئ الذي أحرقته حرارة الجو اللاهب، أشعر أن أوردتي خيول ترفس.. تناصبني العداء، سكبتُ على جسدي بعض ماء وناجيت أمي التي شعرت بنسائم روحها حولي:

- أنا ابنك يا زهراء

- أنا وحيدك.. وحيد أحرقتني سوء حالي، وقسوة أيامي، مذ رحلت وأنا شراع دون سفينة، وبحر من الحزن بلا موانئ، وجهك الذي يأتي حزيناً كل مساء يقتلني دون أن أموت، ينسل إلى سمعي صوتك المتهدج بالحسرات على ابنك الذي ضاع حياً، ومات منذ أخذته الشرطة عنوة من بين يديك فتركتِ الحياة حزناً عليه، لم يعد له إلا

بيع جمجمتك لتتحول إلى مسحوق تجري في أوردة المتعاطين للمخدر، وأقتات بثمنها بعض طعام، أي جريرة أكبر من هذه في حق أم يرتكبها ابنها وهي من مات خوفاً عليه وحزناً عليه ؟!، منذ أمد ليس ببعيد شاخ على ساعدي شعري فبدا كالطحالب، وأكل القمل أجفاني، والذباب أناخ إلى جواري، يأكل نهاراً من أطرافي التي مسها الضر حين يراني مسجّى من فرط الخدر الذي تصيبني به الحشيشة اللعينة حتى فتح في أطرافي جحوراً يأوي إليها متى جاع ليأكل ما لذ له من لحمي المتعفن، أو يشرب دمي الملوث، لكنه الذباب يحب هذا النوع من العفن، ويزيد في عنادي فيضع بيضه في تلك الجحور التي حفرها حتى إذا ما فقست وأصبحت دوداً أمعنتْ في أكل لحمي، وفي الليل أغدو بين القبور ككائن متوحش أبحث عن جمجمة لأبيعها على محسن، أحمل على كاهلي جبلاً من الحزن، وخطاي تنتعل النار وأنا أجوس بها القبور، أشتكي منذ مدة من ورم في البطن، وصداع مزمن، وزاد تقيح أطرافي بفعل الذباب اللعين الذي أمعن في العبث بها فملأت البيت رائحة عفنه، عندما أحاول تطهير الدود وقتله، يدفعني ألم الجروح للبكاء بعد أن فشل المطهر الذي أحضرته في منع تكاثر الدود بسبب قدرة الذباب على استغلال فترة خمودي ليجدد نشاطه، أما تقرّح جسدي من أكل القمل والبراغيث والبعوض فقد زادني ألماً على ألم، وعندما أنظر في زوايا البيت وسقفه يذهلني حجم العناكب التي تتكاثر، أتأملها وأنا أقلب مواجعي وأهش عليها بأحزاني فلا تكترث، وللعناكب قرصات مميتة فأحاول تجنبها، وكلما رششتها بمبيد تختبئ في الشقوق لتعود بعد وقت لممارسة هوايتها فتنسج خيوطها للإيقاع بذبابة طائشة أو بعوضة أثقلها حمل دمي فتتعثر في أحد خيوط الشباك ويُقضى أمرها.

مرة واحدة رشت البلدية حي المدقوق بمبيد الذباب والبعوض قبل سنوات ولم يعودوا، كان يوماً سيئاً حين استيقظت على صوت الموتور الذي تجول به سيارة البلدية وهو يضخ دخاناً أبيض ساماً أصاب كل من استنشقة بالغثيان فطلب الناس عدم تكرار الرش، فأصبح الذباب والبعوض ورفاقهما من الحشرات في مأمن من غزوات رش البلدية خاصة وأن الحي لا يوحي بوجود ساكنين فتحول بيتي إلى قبو ملوث بالعفن والحشرات، لرجل ملتاث العقل والمشاعر.

لعنة التردد

كالعادة عندما أكون مسترخياً في فراشي أبدأ بتجميع أيامي، وتقليب صفحات العمر باحثاً عن ضوء فرحة عابرة، أو ذكرى لحظة حميمية متوارية خلف ضباب الهموم والآلام فلا أجد ما يستحق الذكر، وكانت آلام النفس والجسد تطوح بكل فكرة تعيدني إلى الحياة التي كنت أمّلتها يوماً ما، كيف يستمر جسدي المضنى بالشوق والفقد والوحشة، والمدقوق بالمرض في التشبث بالحياة؟!.

تأملت الصورة القديمة لطفولتنا والمثبتة على الدولاب رأيت ياسر وقد تلاشت ملامحه بينما ظهرت ملامح ريم أكثر أنوثة، استحضرت رؤيتي لنفسي وأنا هي، قادتني رغبة إلى معرفة أحوالها، لكن كيف؟ ليست حالتي الصحية جيدة لكي أذهب إلى ما حول بيت خالها فأتحسس عنها لأراها وتراني أملاً في أن أجد ريحها، وإذا رأتني أو رأيتها فمن يعرف الآخر فقد تغيرت ملامحنا تلك التي كنا نتعارف بها. ولا أعرف رقم هاتفها المحمول لأرسل لها رسالتي، وربما ليس لديها هاتف، ومن يوصل رسالتي فيما لو كتبت لها وعلاقاتي مع الآخرين مقطوعة منذ سنوات؟ لكن لابد أن أواسيها عن عمرها الذي احترق بظلم ياسر، وفقدها لابنها عمر بطريقة مؤلمة على يد أبيه،

ولعلها بعد أن تقرأ رسالتي تعتذر عما ألحقته بي من ضرر بالغ عندما تركتني وتزوجتْ ياسر فتشفي باعتذارها بعض جروحي النفسية.

شعرت برجفة تهز جسدي جراء فكرة كتابة الرسالة التي حلت علي هذه الساعة، واجتاحتني رغبة عارمة في البكاء فتعالى نشيجي، لا أحد يسمعني ليعترض أو يواسي، أدرت ظهري للصورة ومضيت أبكي حتى جف الدمع وسمعت خشخشة في صدري، كانت حرارتي مرتفعة ومفاصلي تئن من الألم، والوحشة تعصرُ قلبي كما تُعصر قطعة قماش مبللة بالماء لتصبح جافة، شعرتُ به بعد وقت جافاً كورقة شجرة مص الخريف ليونتها، سمعت أصواتاً تتضاحك، ورأيت هيئات شخوص، لعلهم شياطين حي المدقوق تجمعوا للضحك على حالتي، لكني مع ذلك كتبت رسالة لريم:

ريم الحبيبة

أنا وحيد

لا أعرف من أين أبدأ رسالتي إليك فمصابك في ابنك عظيم، وما لقيته من ظلم ياسر مؤلم جداً، ولا أعرف سبب اختيارك له شريكاً، هل لأنه أجمل وأطول مني؟ ربما، لكنني لم أكن أتصور أن أعيش بدونك يوماً .

ما زلت أحبك ..

وحيد.

كتبتُ رسالتي هذه دون قلم وورقة، كتبتها في مشاعري ونطق بها لساني حين دخلت في نوبة نوم قسرية بسبب الإرهاق البدني والنفسي وبعد لحظات وصلني جواب ريم:

العزيز وحيد

أشكرك على مواساتك لي، كنت أعلم أنك كنت تحبني لكنك كنت خائفاً ومتردداً، ولياسر عليك سطوة فكنتَ أداةً في يده لا ترفض له طلباً، وكان ياسر جريئاً ومقداماً وهما صفتان تحبهما المرأة في الرجل، ولهذا استطاع أن يستولي على مشاعري.

أشكرك على مشاعرك مرة أخرى، وأتمنى لك عمراً مديداً، أما أنا فنهايتي قريبة .

ريم.

استيقظت على وقع كلمات ريم التي وصلتني بالتخاطر، كانت مفاصلي واهنة جداً بعد ليل طويل مع الألم، وجسدي جاف وصلب فبللت حلقي برشفة ماء فاتر بفعل حرارة الغرفة، ورويداً رويداً تطايرت أحرف الجواب، لم يبق في ذاكرتي إلا عبارتها المؤلمة (كنتَ خائفاً ومتردداً).

ذهبت لأغتسل من عفن الفراش وعفن جسدي بعد العرق والدموع التي اختلطت في المساء، وضعت بعض ثيابي المتسخة بسبب حفر القبور في الغسالة لغسلها، عندما فتحت الصنبور تدفق الماء من الحنفية

الموجودة على السطح على جسدي برائحة كريهة، أقفلت الصنبور وصعدت لأرى سبب تلوث الماء، وجدت وزغة مهترئة وسط الحنفية فأفرغت الماء ونظفت الحنفية ثم أشعلت دينمو دفع الماء وعدت لأستحم وأغسل أثوابي، آلمتني الجروح الغائرة في أطرافي، ورأيت بعض الدود يغادرها، بقيت ساعات في الماء ليخرج كل الدود الذي سكن أصابع قدمي، أحسست بحاجة إلى الفطور فنزعت قدمي وجففت جسدي، ثم أعددت الشاي وفتحت علبة من الجبن وقلّبت على نار الفرن قرصاً جافاً من الخبز ليلين قليلاً، بعد الفطور شعرت بخدر أخذني للنعاس فنمت وتركت روحي تتحدث.

أشباح النهاية

عدتُ إلى البيت لأسترخي بعد تسليم جمجمة أبي بالأمس، وما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى سمعت طرقاً خفيفاً فأشعلت الشمعة لأتبين فلم أجد أحداً، كانت الكهرباء مطفأة دون أن أعرف سبباً، ربما أنني لم أسدد الفاتورة منذ أشهر، عدت لفراشي فسمعت بكاء أطفال في زاوية فذهبت نحوهم فسمعتهم في زاوية أخرى فذهبت باتجاهها، وكلما وصلت زاوية سمعت الصوت في أخرى فعدت إلى فراشي لكنني شعرت برجل يرتمي عليه قبلي وله أنين موجع فوقف شعر رأسي رهبة، وشعرت برجفة خرَّ على أثرها جسدي المتعب لأغيب في الخوف حتى سمعتني أهمس في أذني: لا عليك .. هذه بعض أرواح الجماجم التي سرقتها من القبور جاءت تبحث عنها، لم أصدق حديثي فكثيراً ما تحدثني نفسي بغير الحقيقة، كنت أجزم أنني فقدت عقلي من الخوف والإعياء لكنني رأيت شبح الرجل يغادر فراشي وقد خف أنينه متجهاً صوب الباب وتبعه بعض الأطفال فتذكرت الجماجم الصغيرة التي سلمتها لمرسول محسن فلم تعجبه فقذف بها خارج سور المقبرة، دخلتُ في غياب حتى منتصف النهار شعرت بجوع يعصر معدتي فأكلت خبزاً ناشفاً مع بعض الجبن الحامض وكرعت بعض ماء، ثم عدت للدخول في الخوف حتى جنّ الليل، أعددت كوب شاي وسحبت سيجارة من

بقايا ملفوف الحشيش الموضوع في درج الدولاب، ونظرت لصورتنا نحن الثلاثة فلم أر فيها أحد، بعد حين ذهبت لأغسل وجهي ووقفت أمام المرآة لأراني، لكنني فوجئت بوجه أمي وهي غاضبة تعاتبني على كل أفعالي :

- لماذا يا ولدي كل هذه الجرائم ؟، جمجمة والدك تبيعها لمجرم !، وتريد بيع جمجمتي !.

أشارت لأبي خلفي فمددت يدي لأمسك به وأحضنه فتبددت يدي وأعترتني رجفة ووحشة وغاصت نفسي في حزن أسود، كانت أمي في المرآة تبكي، أشعر بقطرات دمعها ترن على الأرض كصوت دنانير، وأصابع أبي على كتفي كدبيب نمل، فجأة فقدت ذاتي فذهبت أتحسس المرآة فلم أجدها، ولم أجد سريري، وضاع الباب عندما مرّ ذيل عباءتها من جانبي ومحا كل شيء.

في الصباح أخذت نفسي للبحر، قررت أن أكون طعاماً للأسماك لعل ذلك يكفّر من ذنوبي، نزلت من نهاية الكورنيش إلى مصطبة إسمنتية لكي اتخذ القرار في الوقت المناسب وأمنح الأسماك جسدي النحيل فإذا برجل يقف إلى جواري دون أن يحدثني، حدثته فلم يجب، تململت منه فلم يغادر إلى أن كوتني شمس الصيف الحارقة فيئست من مغادرته فعدت أدراجي إلى البيت بعد أن أفسد علي ذلك الرجل الجامد مشروع الانتحار لأنني لا أريده أن يكون شاهداً على فعلتي تلك.

في طريق عودتي قلت لنفسي: لقد استسلمت للظروف فتركت الدراسة، وهزمتك امرأة، كما هزمتك

الحاجة فجعلتك سارق جماجم تعيش الحياة في أسوأ مناظر قبحها!.

بعد حواري المحزن مع أمي في الليلة الماضية قررت عدم تزويد محسن بالجماجم، والتوقف نهائياً عن هذا العمل، لذت بالصلاة بعد أن اغتسلتُ وتركت التعاطي، أصلي لكي أخرج من ضيق الأرض إلى رحابة السماء، أدعو ربي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني، أعلم أنه لن يستجيب لي لحديث (يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّماءِ يا رَبُّ.. يا رَبُّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ)[1] لكن أملي في عفو ربي أكبر من اليأس فهو ملاذي الأخير، قضيتُ جل وقتي أقضي صلوات فائتة لا أعلم عددها، اجتهدت في قضائها عدة ليالي وأيام، وصلني رسول محسن فأبلغته رفضي إحضار جمجمة أخرى، حاول محسن ثنيي عن قراري بكل الوسائل، يسترضيني مرة ويهددني أخرى، ويعدني بزيادة المبلغ المالي وزيادة كميات الحبوب والحشيش مرات، وعندما شعر بتصميمي على التخلي عن تزويده وعصابته بالجماجم هددني بعنف، لم أغير نبرة صوتي الرافض فأدرك أنني اتخذت قراري الذي طالما راودني من حين لآخر خاصة منذ مقتل ياسر إلى بيع جمجمة أبي بالأمس، في الثلث الأخير من الليل طرق طارق الباب، توجست، طرقه بعنف .. لكني معتاد على مقابلة عصابة الترويج في مثل هذا الوقت، فتحت الباب فرأيت شبح رجل يختفي وراء لثام لم أعرفه من هيئته، حاولت معرفته بالحديث فكل الأفراد سبق لي التعرف عليهم من خلال تسليم الجماجم،رحبتُ

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ١٠١٥.

به ليرد، دفعني بعنف للداخل وأطلق علي ثلاث رصاصات من مسدسه أصابتني إحداها في الكتف الأيسر من جهة أعلى الصدر، والأخرى في الزاوية اليسرى للبطن، أما الثالثة فوقعت في الصورة التي تجمعني بياسر وريم في وسط الدولاب .

أخذ يدي ووضع كفي على المسدس وتركه بجانبي، حاولت أن أتشبث به لأقضم جسده بأسناني لكنه دفعني واختفى بسرعة فائقة، بقيت أتمسك بالجدار وأتلوى من الألم، كان الدم ينزف من كتفي وبطني فوضعت يميني على كتفي حيث يتدفق الدم، ويدي اليسرى على بطني كي أوقف النزيف، شعرت بخدر في يدي اليسرى منعها من شد بطني فتهاوت كالمعلّقة، أما يميني فلم تستطع إيقاف تدفق الدم، بلغتُ حالة صعبة للغاية وأنا مضطجع على فراشي، أحسست أنها النهاية، لكنني لم أرد أن تكون نهايتي بهذه السلبية والسهولة على يد أحد السفلة من عصابة قتل الأطفال بالمخدرات، أردت أن أنتقم ولو في اللحظة الأخيرة، وأقوم بدور إيجابي ولو هامشي يشفع لي فاتصلت بالشرطة لأبلغهم عن عصابة الترويج بقيادة محسن لكن شريحة الجوال خذلتني فلم تعد تعمل.

لم أعد أدرك أين أنا من الأرض، نسيت اسم المدينة والحي والمكان، لم أعد أفهم شيئاً فأذناي تملؤها أصوات غريبة متداخلة، وتظهر لعيني وجوه متنوعة لم أرها من قبل، ولم أستطع التمييز بينها، كلها تنظر إلي وأنا صامت لا أجرؤ على توسل أحدها مساعدتي، لا أعرف هل أنا الآن ميت !، أم إنني ما زلت حياً ؟!، هل سيجدني أحد

قبل أن تتعفن جثتي، أم إن ذلك لا يحصل حتى تتسرب الرائحة إلى بيوت الجيران الوافدين فيبلغوا الشرطة ؟.

هل سيغسل الناس جثتي ويصلون عليها ؟، أم سيقذفون بي في إحدى الحفر بلا صلاة ولا دعاء ككلب أو حمار لكوني في نظرهم مجرماً مات منتحراً ؟، وربما وضعوني في ثلاجة المستشفى لأشهر حتى يعرفوا القاتل، لا يعرف عني أحد شيئاً الآن إلا ذلك المجرم السافل الذي أمطرني بالرصاص بمسدسه دون أن يفك لثمته لأتعرف عليه، ربما ما زالت روحي في جسدي لم تغادر، فقد نطقت بالشهادة، وتلوت بعد ذلك ما تيسر من سورة «يس » وأنا أتوسد الجدار.. بينما ظل الباب مفتوحاً على مصراعيه في حالة لم يشهدها منذ سنوات !.

يوليو ٢٠١٧م